منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
Editions Difaf

8.8.2017

طاهر الزهراني

الفَيومِي

رِوَايَـة

الفَيومِي

الفَيومِي

رِوَايـَة

طـاهـر الـزهـرانـي





منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1437 هـ – 2016 م

ردمك 978-614-02-1489-7

جميع الحقوق محفوظة



عمّان– خلدا– امتداد شارع الجاردنز
هاتف: 00962-79-5584993
البريد الإلكتروني: majaz.publishing@yahoo.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إلى خالي أحمد.

﴿...وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾

(سورة الحجرات: 13)

"السعادة تكمن في زراعة بستانك"

فولتير

"الوطنُ حيث يكون المرءُ بخير"

أريستوفان

أثر

الجبال..

لا حياةَ في الجبالِ بعد رحيله، المطرُ لم يأتِ منذ فترة طويلة، غبشٌ في الصور بسبب الغبار العالق الذي لا يريد النزول ولا الصعود، متشبِّثٌ بالتضاريس والهواء.

لا تكاد ترى حياة هناك، لا طيورَ جارحة، لا رفرفةَ حجل، ولا صوتَ لأبي معول، لا ضحكاتِ وبارة تتردَّدُ في صدور الجبال، ولا نقيقَ للضفادع في غدران الشِعاب.

السقيفةُ مبقورةٌ، باردةٌ بلا دفء، المكانُ يشتاق لمداعبات الأحبَّة في لحظات الصفاء، الموقدُ يفتقدُ حرارة الجمر، ورائحة الخبز، الوحشةُ هي الساكنُ هناك، الساكن الذي يبغض الحياة.

"الصِفِر" هو ما تبقَّى من المواجهة بين فردٍ ضعيفٍ، وقوةٍ موجَّهةٍ لا تشعر، الصِفِر المبثوث القادم من نحاس الأرض يرغب في العودة إلى قلوب الصخور بدلاً من رؤوس الناس، وقلوبهم.

"الصِفِر" بعد أن تخلَّص من رؤوسه عبر حلوق البنادق، بقي جثاثًا صفراءَ، لا حياةَ لها سوى البريق الذي يحدثه النجمُ الكبيرُ، البريق في الصدوع، والجباه، على الصخور، وأسفل جذوع الشجر.

"الصِفِر" جثثٌ أخرى في المعارك، فراغٌ مرعبٌ محروقٌ داخله، بعد أن كان يحبس الدويّ والاشتعال، والموت. الموتُ في الطرف المقابـــل، موتُ البشر، أو موتُ المعابر سحلاً فوق الصخور، أو بردًا في سماء الله.

الأشجارُ يابسةٌ، البشامُ دون لحاء؛ بسبب جوع الكائنات الـــتي لا تُرى، والغدرانُ نشف أغلبها، وبقي بعضها محتفظًا بفضلة خضراء آسنة، ضاقت بالضفادع، وشراغيفها.

الشِعبُ يفتقد خطى الصيَّاد الذي لا يُصدِر صـــوتًا إلاَّ نـــداءً للصيد؛ كي يأتي لسد الجوع، الصيَّاد الذي ينقذ النَّحل الغارق، الذي يتأمَّل العقاب الجاثم فوق القمم ينتظر الطرائد، الصيَّاد الذي يبخِّـــر الشعب برائحة الحطب، والشواء.

الصخورُ الحادَّةُ اشتاقت للعرق الأصيل، ملوحة العناء والانتظار والترصُّد، العرقُ الرطبُ الذي ينزُّ عبر المسام التي تفتَّحـــت بفعـــل التسلُّق الدائم نحو شعف الجبال، ومقابلة النجم مباشرة دون حائـــل، عرقه الحُرُّ الذي لم تخنقه مدن الأسمنت، وأجهزة التكييف.

تمَّت مصادرةُ السلاحِ والذخيرةِ من البيت والسقيفة، رُحِّلَـــت العجوز والماشية، وحول البيت الذي كان حيًّا لُفَّ شريطٌ يمنع الناس من دخوله.

البيوتُ في شِعب آل فيوم مواتٌ، أصبحت مـــأوى للـــدبابير، وقرود البابون، غاب مَن كان يطاردها، ويثـــوِّر البنـــادق نحوهـــا، سقوف المنازل بدأت تنهار؛ بسبب النمل الأبيض، هو بيت الحجـــر الذي لا زال صامدًا في وجه الزمان.

على أطراف الوادي البلاد التي لم تُزرع منذُ أمدٍ، فغزتها أشجار الشوك من سلم وسمر.

أشجار السدر التي لا زالت كريمةً تطرح النبق الناضج، فلا يجد سوى النمل، والدود، وطيور الدوري التي تتقافز في الظِلال، تلـــك التي لم تحفل بإنسان بعد المواجهة الأخيرة.

الفتى النحيلُ الأسمرُ بفعل الشمس، وركوب الجبال، ذو الشـــعرِ الأسود الأشعث، واللحية التائهة، وجدوه مغمى عليه بعد أن نزف، ممدَّدًا فوق الصخور، مستورًا جذعه بمصـــنّف جنوبــــــي ملـــوَّن، فحملوه، فانحلَّ الإزارُ، فتاهت النَّظرات في المكان، فأخذت تقـــرض الشجر، والبلاد والقمم "الفاهقة"، والسماء العاجزة عن فعل شـــيء سوى النظر بزرقة باردة.

كان آخر شيء باشر الأرض بعد الرصاص المسكوب، دم الفتى الذي نزف ذاكرته بكرمٍ جنوبيٍّ مشهودٍ في الوادي، الـــذاكرة الـــتي تنتظر السيل، علَّه يجرفها للبحر، فيعرف البحر قدر الجبال.

أطوار

العاطل

ينظرُ عبر النافذة إلى الخروف الذي أزعجهم بالثغاء، فقد أطلقه والده في حوش الدار قبل أيام، وجعل مهمَّة ذبحه على أبنائه، الـــذين أخذوا يتهرَّبون بحجَّة العمل، ويرون أنَّ الوحيد الذي ينبغي عليـــه أن يقوم بهذه المهمَّة عطيَّة العاطل.

..

كان والدُ عطيَّة بائعًا متجوِّلاً في المناسبات والأفراح في قـــرى الجنوب، ترك القرية قبل عقود، واستقرَّ في مدينة جدَّة، وأصبح لديه دكان في أحد الأحياء الشعبيَّة يدرُّ عليه الرزق.

أمُّهُ إنسانةٌ بسيطةٌ، تتعامل مع الناس بتواضعٍ وحبٍّ، ولا زالت صِلاتها بالجميع وثيقةً، سواء في المدينة، أو في القرية، محبَّةً لجيرانهـــا، وقراباتها.

لدى عطيَّة أخٌ أكبرُ منه، وآخرُ أصغرُ منه، يعملان مع والـــدهما في الدكان، يشعران باستقرار وأمان، بخلاف عطيَّة الذي يفكِّر خارج دائرة العائلة دائمًا.

لم يعدْ والدُه يتحدَّث معه حول حاجتهم له في العمل، فعطيَّـــة

يتمتَّع بنوع من التمرُّد، والتفرُّد بآرائه، ويعتدُّ بذلك، وهـذا الأمـر يعجب والده، إلاَّ أنَّه لا يظهر ذلك، في النهاية لدى والده يقينٌ أنَّـه سوف يرضخ ذات يوم، ويرضى بالعمل معه.

..

تلتقي عائلتهُ صباحًا على الإفطار، عطيَّة يتناول قليلاً من البيض الذي صنعته أمُّه، أخذ بعض السمن الذي جعلته أمُّه للفول، وصبَّه في كوب الحليب، عندما علت طبقة من السمن فوق وجـه الحليـب شربه، حمدَ اللهَ بصوتٍ عالٍ، مسح السمن الـذي علـق بشـاربه، وأخبرهم أنَّه سيذهب لديوانً الخدمة علَّهُ يجدُ وظيفةً.

قبل أن يخرجَ ذكَّره والدُه بالخروف.

أخوه الكبيرُ أرسلَ مزحةً ثقيلةً:

– وش رأيك بدل ما تدوِّر وظيفة، تشتغل في المسلخ؟!

نظر إليه عطيَّة وردَّ عليه:

– أشتغلُ في المسلخ، ولا أنتظرُ الصدقةَ من أحدٍ!

ردَّ والدُه:

– مالنا واحد، ما لأحد فضل على الثَّاني.

ودَّع عطيَّة عائلته، وقصد ديوان الخدمة المدنيَّة.

..

أخذ وقتًا طويلاً حتَّى وصل، نظرًا لزحام شارع فلسطين، زحام جدَّة يجلب له التوتر، ويخرجه عن طوره أحيانًا، فيقود السيَّارة بطريقة صبيانيَّة.

يشعرُ برغبةٍ في البكاء، متضايقٌ من الحياة، لم يعدْ يطيقُ الزَّحامَ، والضجيجَ، يشاهد العدد الهائل للسيَّارات، الزحام في كل مكان، في

جميع الأحياء، في كلِّ الشوارع، أخلاق الناس تظهر جليَّة في الطريق، السباب، والتفاهات التي قد تجلب شِجارًا أحيانًا، حتَّى الخبز ينتظره الخلق بالساعات، الأسعارُ مضاعفةٌ، والعقارُ أصبح حلمًا، والمياهُ تنقطعُ عن الأحياء، ومياه الصرف الصحيّ تغرقُ بعض الشوارع، والهواءُ ملوَّثٌ بروائح الكربون، والإطارات المحروقة خنقت الناس في دورها.

قطعَ كلَّ هذه التصوّراتِ عندما دخل الديوان، أخذ ينظر في آلاف المنتظرين في القوائم، هؤلاء يحتاجون سنواتٍ طويلةً حتَّى يجدَ أحدهم فرصةً كي يتوظَّف، ثم بعد ذلك تنهبه الهموم بمجرد أن يعمل، ثم يغرق في طين القروض.

لا أمل!

خرجَ من المبنى، وقد غسلَ يده من الوظيفةِ المدنيَّةِ، يشعر أن جدَّة التي عاش فيها كلَّ حياته تريد أن تلفظه.

قبل الظهر دخل بيتهم، قرّب سكاكينه، ألقى بالخروف على جنبه، ذبحه، ثم علَّقه، وقام بسلخه، بقرَ بطنه، وأخرج الكبد، والحواشي الأخرى، حملها لأمِّه لتصنعَ منها إيدامًا على الغداء.

قسَّم الذبيحةَ أرباعًا ورماها في صحن كبير، ثم جلس بساطورةٍ ثقيلةٍ، وأمام جذع شجرة مقطوع، أخذ يقطِّع اللَّحم، ويكسر العظم، ثم حمل الصحن للمطبخ، وترك مهمَّة توزيعه، ووضعه في أكياس لوالدته.

بعد أن أهدرَ سخطه ذهب للاستحمام.

..

في ذلك الوقتِ كانت الأحداثُ تتسارع في الحدِّ الجنوبيِّ، لهذا فُتحت الأبواب للتوظيف في القطاع العسـكريّ، خاصَّـةً سـلاح الحدود، والحرس الوطنيِّ، والجيش، بعد ثلاثة أسابيع مـن البحـث، وجد عطيَّة وظيفةً في الحرس الوطنيّ برتبة وكيل رقيب، قدَّم أوراقـه مباشرة، ثم دخل دورةً مدّتها ثلاثة أشهر.

عطيَّة كان على يقين أنَّه سوف يكون في الجبهة في أيِّ لحظة.

..

..

بعد شهورٍ من الانتهاء من دورته العسكريَّة، كان عطيَّة علـى الحدود، رغم سعيه الحثيث من قبل على وظيفة مدنيَّة توفّر له الهدوء، بعيدًا عن الصراعات، وبعيدًا عن الدماء.

كان يحدِّث نفسه -وهو في الطريق للحدود- بشرف أن يكون مدافعًا عن أرض وطنه، سيحاولُ أن لا يتورَّط في القتل، أو التوغّـل في أرض ليست أرضه، سيكون هناك داحرًا لأيِّ هجـومٍ يقصـده، ويقصد وطنه.

جبلُ الدّخانِ

هو متورِّط في حرب خائبةٍ، زملاؤه يموتون سدى على الشريط الحدوديّ مع اليمن، قائدُهم يأمرهم بالنزول المظليِّ خلف خطوط العدو، خطة فاشلة اندثرت قبل نصف قرن، الحوثيُّ يتسلّى باقتناص الأجساد المتناثرة من علٍ، أجساد يخترقها الرصاص، ترتعش قليلاً في الهواء، ثم تهوي باردةً إلى الأرض.

أيّ حرب تافهةٍ يخوضها القوم، زمرة من المتمرِّدين يحتلُّون جبلاً، ويكبِّدونَ الدولة خسائر بشريَّة وماليَّة تفوق الوصف.

هو يرى أن المسألةَ يُستطاع حلّها دون نزيف الأرواح الذي لا يهدأ، دون أن تتساقط أوتاد الوطن الشابَّة، "ما أرخص الأرواح.. ما أرخص الأرواح هنا"!

قبل ليالٍ قُتل زميله الذي كان معه في الخندق، كان يجلس خلفه، كان واقفًا يشعل سيجارته، لم يكد يأخذ نَفَسًا، حتَّى سمع دويًّا!

سقطَ عليه الجسدُ، لم يستوعب الموقف، هو يدركُ في تلك اللحظة أن هناك صمتًا اخترقته رصاصة، أعقبه صمتٌ مرعبٌ،

وجيبٌ هائلٌ، أشعل الكشَّافة، نظر في وجه رفيقه، لقد اخترقت وجهَه رصاصةٌ، مرَّر الضوءَ في الخندق، دماء، مخ، شعر متناثر، وعلى بُعد خطوة من الجسد سيجارة يتيمة تحترق.

بعد ليال تكرَّرت حادثةٌ أخرى، في الخندق جنديٌّ خرقت جبهتَه رصاصةٌ، ولا زالت السيجارة في فمه!

صدر أمرٌ من القائد بعدم التدخين في الخطوط الأماميَّة.

فُجع عطيَّة من قنص تلك الشرذمة التي تحتلُّ الجبل، تقنص بدقَّةٍ نادرةٍ، هو يُجيد الرماية، يشهد له الجميع بذلك، لكنَّه لم يقفْ على رمايةٍ في الظلام بهذه الدقَّةِ!

لا شكَّ أنَّه شخصٌ واحدٌ يجيد القنص بهذه الطريقة.

شغله هذا الرَّامي كثيرًا.

"مَن يدري ربَّما أكون في لحظة غفلة ضحيَّة رصاصةٍ من فتى صغير يحسنُ القنصَ"!

يلعنُ الحربَ، ومَن أشعلَها.

بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة، جاءَ دوره ليستلّم في الخط مع بقية زملائه، هذه المرَّة حمل معه ولاَّعات، ووزَّعها على رفاقه في الخط الأماميّ!

بعد منتصفِ الليلِ رفعَ يده وقدح، أخرجَ شعلة النار فوقَ حافّة الخندق، انتظرَ قليلاً، شعرَ بحرارة الولاَّعة، فـ "قحصت" رصاصةٌ فوق الحافَّة في ذيلها دوَّى عيار.

..

أمر رفاقه أن يفعلوا مثله، في أوقات متفاوتة.

رفيقُه يبعد عنه بعض الأمتار، والثَّاني مثله، والثالث أيضًا.

بعد نصفِ ساعةٍ من الطلقة الأولى أمرَ عطيَّة رفيقــه "إبــراهيم مجرشي" أن ينتظرَ منه أمرَ الإشعال، مدَّ عطيَّة بندقيَّته الـــ "G3" – العُهدة الملازمة له، والتي تدرَّب عليها كثيرًا حتَّى عرف ظِنتها– أمــر إبراهيم أن يشعل، نظر في الجبل رأى وميضًا، ثم لم يشغله الرصــاص الخائب بعد ذلك، هو يبحث عن عين الوميض.

بعد دقائقَ أشارَ لزميلٍ آخرَ أن يقدحَ.

بندقيَّةُ عطيَّة موجَّهةٌ نحو الوميض السابق، صوت القدح، شعلة تتراقص، وميض، رصاصة خائبة ثالثة، غلبة الظن تزيد عنده، يتنفَّس سريعًا، يزداد وجيب قلبه، بعد دقائق يشير لرفيقه "علــي اليــامي" بالإشعال، يكتم نفسه، يشعل عليٌّ، وميضًا فتنطلق رصاصة من بطن الــ "G3" بعد غلبة الظن، يسود الصمت..

في أعلى جبل الدّخان يتكفَّل الفراغ بنقل أصواتٍ، وجلبةٍ غير معهودة!

يستديرُ، يُعطي الوميض الآفل ظهره، يطلبُ من عليٍّ سيجارةً، رغم أنَّه لا يدخن، وضعها في فمه، انتصب واقفًا، أشعل ســيجارة، أخذ نَفَسًا بروحٍ معطوبةٍ!

الرفاقُ أخذوا يطلقون شُعلاً متفرِّقةً في قلبِ الظلام، دون خوفٍ من رصاصٍ غادرٍ.

احتفلوا بانتصارهم الصغير، اجتمعوا حــول قــدر الضــغط، يضحكون، ويدخنون.

لكن عطيَّة يشعرُ بداخله بشيءٍ مكسور، فهو لأوَّل مرَّة يظنُّ أنَّه أزهقَ روحًا..

الشّارِد

المستودعُ

"انسحبَ الحوثيون من أرضنا، شعرنا بالانتصار، لكنَّنا هُزمنـــا بطريقة أو بأخرى، لقد تكبَّدنا في هذه الحرب خســـائرَ في الأرواح أهمّ بكثير من المليارات التي صُرفت عليها، وهم في النهايـــة مجـــرّد مجموعة من الصعاليك المتمرِّدين على حكومتهم، دخلت أرضنا مـــن باب ذرِّ الرمادِ في الأعينِ"!

هذا ما يردِّدهُ عطيَّة لبعض المقرَّبين.

عادَ بعد ستةِ أشهر قضاها في الحدِّ الجنوبيِّ ثم أُعطـــي ترقيـــةً؛ فترقَّى من وكيل رقيب، إلى رقيبٍ، وراتب ثلاثة أشـــهر مكافـــأة، وعلاوة في الراتب.

مرَّ عطيَّة بتجربةٍ عظيمةٍ في حياته لن ينساها، لقد عـــرف معـــنى الحرب، السهر على الحدود، التعرُّف على أصدقاء يتقـــاطعون معـــه في الأجل والمصير، والخسائر، والانتصارات المتواضـــعة، الانتصـــار علـــى النفس، والرغبة، وذبح الوهن على خطوط النار، انتهت الحرب، أعلـــن العدو انسحابه من الأرض والجبال، ثم أُعطي المحاربون إجـــازةً، هـــذَّبوا فيها لحاهم، ثم ودَّعوا المكان الذي شهد رعبهم، وعرقهم، والدماء.

بعد عودته بشهور قدَّم عطيَّة استقالته!

لا تهمّه جملة "شَرَدَ مِن العسكريَّةِ" التي سوف يوصَم بها، يكفي أنَّه رجع من الحدود، مقبلاً غير مدبر، لا يدَّعي الانتصـــار، ولكـــنَّ التجربة التي خاضها كانت تستحقُّ المجازفة.

الآنَ يشعرُ بنوعٍ من الانتصار، تنازلَ عن مغريات كثيرة؛ حتَّى يشعرَ بهذا القدر من الحريَّة بعد الاستقالة، لقد رفض عرضًا عظيمًـــا عرضه عليه الضابطُ المسؤولُ عنه، لقد عرض عليه أن يكون مـــدرِّبًا للرماية في ميدان التدريب، فقد برع كثيرًا في الرماية، وحمل شـــهادة تقدير في ذلك، وكذلك مواقفه الكثيرة على الجبهة، والتي أظهـــرت للجميع بسالته، وتميزّه في الميدان، لكنَّه رفض هذا العرض أيضًا!

..

نعم "شَرَدَ من العسكريَّةِ" لكنَّه لم يهربْ مِن الجبهةِ حتَّى يشعر بالخزي، هو قام بما يمليه عليه الواجب تجاه وطنه، عندما شـــارك في الحرب، لا يهمّه نبزَ البعض بأنَّه "شَرَدَ" طالما أنَّه علـــى يقـــين مـــن إخلاصه، وصدقه تجاه ما يحب.

..

أخيرًا جملة "الشَّارد من العسكريَّةِ"، جعلته يرضخ، ويعمل مـــع والده مسؤولاً عن المستودع، رغم أنَّه لا فرق بين مسؤول، ومجـــرَّد عامل، فهو يمدُّ دكانهم بالبضائع، وبعض الدكاكين الصغيرة المجاورة، ويطلب البضائع والموادّ الغذائيَّة من المستودعات الكُبرَى في حال شُحِّ بعضها، بينما جمعان (شقيقه الأصغر) يعمل في الدكان، أمّـــا علـــيّ (شقيقه الأكبر) فهو يتولَّى الإشراف على العمل، والتواصـــل مـــع المستودعات الأخرى، وهو المسؤول عن المعاملات الماليَّة.

المستودعُ مكانٌ كبيرٌ، مسقوفٌ بالزنك، وله بوابةٌ كبيرةٌ تسمح بدخول شاحنات البضائع، وفي زاويته بابٌ صغيرٌ لاستخدام الأفراد.

في داخلِ المستودعِ لا يوجدُ سوى بضائع مرصوصة فوق بعضها البعض، ومكتب حديديّ يدعمه بعض الطوب، بعد أن أكل الصدأ قوائمه، على المكتب دفترٌ كبيرٌ أزرقُ، وهاتفٌ ثابتٌ، عليه شعار الاتِّصالات، يقابل المكتب كرسيٌّ يشبه إلى حدٍّ كبير كرسيَّ المدرسة.

عانَى في أيّامه الأولى من رائحةِ "قطم" الأرز، والتي كانت مرصوصةً عن يساره، كانت "قطم" الأرز تؤذيه بالرائحة، وما ينطلق منها من ألياف، تظهر جليَّة في الهواءِ عندما يفتح الباب، فيتسرَّب الضوء لداخل المستودع، لهذا يُمْضِي عطيَّة معظمَ يومه وهو يدفع الهواء من منخريه كثورٍ هائجٍ.

عن يمينه كانت كراتين قد قاربت السقف لرقائق البطاطس.

وحيدٌ في المستودعِ، لا يلتقي بأحدٍ سوى بعض العمَّال الذين يأتون لإنزال البضائع، أو أخذها، الهاتف الذي أمامه لا يعرف عبره سوى صوتِ جمعان الحاد.

..

أعظمُ نشاطٍ يقوم به هناك في أوقات فراغه، أن يضعَ ساقًا فوق أخرى على سطح المكتب، ويميل بالكرسيّ ناحية الجدار، ويلعب بجوَّاله "النوكيا" لعبة الثعبان، وإذا أصابه المللُ منها، يميل بجذعه نحو الكراتين، وبيده قلمٌ يخربش عليها بعض المعلومات التي بقيت أيام الدراسة، ويكون ذلك على هيئة سؤال وجواب، عن عاصمة جيبوتي، وعدد سكّان مصر، ومولد الشيخ محمد عبدالوهاب، وفتح الرياض..

..

بعد أيامٍ قليلةٍ من عمله في المستودع، وبينما هو يعدُّ الكراتين دونَ حاجة لذلك، رنَّ الهاتفُ، فكان الصوت الحادّ في الطرف الآخر:

- عطيَّة جيب لي كرتون فوط!
- فوط؟
- حجم كبير.
- يا جمعان الفوط في باب شريف، من متى نبيع فوط؟
- يا عطيَّة أترك الخبال، جيب لي كرتون فوط نسائيَّة.
- حفايض نسائيَّة تقصد؟!
- أيوه.

صُدم عطيَّة من طلب أخيه، أحسَّ بالعمى لفترة، صمتَ تمامًا فهو لم يتصوَّر أنَّه في يوم من الأيام سينقل كراتين الفوط النسائيَّة، بعد أن كان يحمل صناديق الذخيرة على الحدود.

كان جمعان ينادي عطيَّة في السمَّاعة:

- عطيَّة يا أخي وش بك؟
- ما عندنا فوط.
- يا أخي عندي في الجهاز أن فيه ثلاثة كراتين في المستودع.

أغلقَ عطيَّة السمَّاعةَ بغضب، ثم قام ودفع كرسيَّ المدرسة، فتح الباب الصغير وخرج، كان الهاتفً يرنُّ بلا توقّف.

الدِّيرَةُ

أجملُ شعورٍ بعدَ انتهاءِ الحربِ، وتجربةِ المستودعِ كـــان ذلـــك الشعور الذي انتابَ عطيَّة، وهو في طريقه إلى الديرة، كـــان لا زال محتفظًا بوعثاء الحرب، وظلام المستودع، حتَّى اتَّجه بسيارته الوانيت "البك آب" إلى حي المنتزهات الشرقيَّة، وسلك طريق الليث، تلاشت ملامح التجهّم مع هبوب الهواء، ودَّع الاستياء والظلام، هناك مشاعر أشواق وسعادة تصاحبه في السفر، منذ أكثر من سنة ونصف حُـــرم من هذه المتعة العظيمة، هو الآن حرٌّ، ترك الحربَ، والفوط النسائيَّة، وهو أمام مصير ثالث.

..

العواصفُ الرمليَّةُ تنهشُ طريقَ الساحلِ، لكن الرؤيـــة كانـــت جيِّدة، في إحدى المحطات مرَّ على متجر وابتـــاع ســـائلَ تنظيـــفِ الصحون، ثم قام بطلي مقدِّمة السيَّارة حتَّـــى لا يلتـــهم "السّـــافي" وجهها، فيزيل الطلاء، ويتلف المصابيح.

كان يسيرُ على مهلهِ في الطريقِ المزدوج، ليس هناك من خطـــر سوى الرمل، والجِمال السائبة.

يتوقَّفُ في بعض أسواق المواشي، ليبحثَ عن بقرةٍ لجدَّتِه، بقـــرة حمراء، هكذا يقولون عن اللون البُني الدَّاكن في قريته، ســـليمة، سمينـــة، كحلاء، هذه هي الموصفات التي تكرِّرها جدَّتهُ دائمًا، هي التي لا تمـــلُّ من تدوير حياتها، فهي تترك الديرة بعد أن تبيع بقرتها في سوق الخميس، لتسكن المدينة شهورًا، ثم تخنقها الجدران، لتذهب مرَّة أخرى للـــديرة، وتبحث شهورًا عن بقرةٍ حمراءَ أخرى لتكون صاحبتها في المكان.

في "الليث" وجد بقرةً بمواصفات الجدَّةِ، نَقَدَ صاحبها، وقبل أن يصل إلى سيارته، أعجبه بعض "الحلال" المعروض للبيع، فدفع فيـــه نصف ماله كعربون، ثمَّ اتَّجه إلى القرية، بعد أن ضرب موعدًا للرجل آخر الأسبوع أن يأتي لأخذ الحلال.

قرَّر أن يقفَ للغداء، في منطقةٌ مشهورةٌ بمطاعمِ الأسماك، كـــان الوقت جيّدًا للاستراحة قليلاً، فربما تهدأ العاصفة الرمليَّة بعد أن بدأت تحتدّ.

تناولَ الغداءَ، ثم طلبَ قارورة كولا، وفي إحدى الزوايا اتَّكـــأ وبعد ولم يغسل يده، ثم راح في غفوةٍ استعاد بها بعض النشاط.

في منتصفِ طريقِ الساحلِ انحرفَ يسارًا نحو "الصهوة"، قاصدًا تهامة زهران، حيث واديهم العتيق، يشاهد الجبال من بعيد، يجتاحـــه الإجلال كلَّما رأى الجبال، مشهد الجبال في كلِّ مرَّة يبهره، ويخلق له شعورًا بالاطمئنان، والشوق، والحبِّ السرمديِّ، يتذكَّر عنـــدما رأى جبالهم أوَّل مرَّة فأصيبَ بحُمَّى نفاضة، ثم تكرَّر ذلك عندما ذهـــب ذات مرّة لجبل شدا.

للجبلِ في روحه حضورٌ مهيبٌ، لا يزداد مع الأيام إلاَّ رسوخًا وتمدّدًا في سرِّه، لهذا لا زالت في عنقه عُمْرَة معلَّقة، بعـــد أن شـــاهد

البشر يدكُّون جبال مكَّة، فلم يطقْ صبرًا، فكيف يقومون مقام الربِّ في دكِّ الجبال، فعاد أدراجه دون إكمالِ النّسكِ!

يذهبُ إلى الصحراء مع أصدقائه أحيانًا، يحب البراري؛ لأنَّها مظنّة الجبال، الشيء الوحيد الذي لم ينسجم معه عطيَّة هو البحر، لا يذهب إلى البحر إلاَّ غصبًا، يكره زنخه، ورطوبته، وزحامه، يعود منه متكدِّرًا ضائقَ الصدرِ، حتَّى عندما يُضطر لسلوك طريق الكورنيش، فإنَّه لا يلتفت إليه مطلقًا، يدرك عطيَّة أن علاقته بالجبل جعلته كائنًا جبليًّا لا يرتضي غيره.

بعد أقلِّ من ساعةٍ، وصلَ إلى "مثلث الحجرة"، رفع يده بالسلام على رجل الأمن الذي هناك، ثم ذهب إلى أحد باعة السلاح في الحجرة، واشترى منه بعض قطع السلاح، والذخيرة، للمتاجرة، والاستخدام أيضًا.

عرضَ عليه صاحبُ السلاح، منظارًا، لكنَّه رفضه، سأله عن مسدس من نوع "جولك"، مثل عُهدة العسكر، فأخبره أنَّه نادرٌ جدًّا، وأسعاره مرتفعة، لكن لديه صناعة تركيَّة، فرفضه.

عرضَ عليه قطعَ كلاشنكوف، وأخبره أن لديه ما يكفي.

لفَّ الرجلُ السلاحَ والذخيرةَ بقطع من القماش، نَقَدَهُ ماله، ثم خرج من عنده، وسلك طريقًا غيرَ معبَّدٍ، حتَّى لا يُضطر للمرور على نقطة التفتيش.

..

الديرةُ مقفرةٌ، مكفهرَّةٌ، اليباسُ والجفافُ يطالان كلَّ شيءٍ، هو الربيع الذي ينتشل القرية من الموات الدائم طيلة العام، لهذا هي شبه خالية على الدّوام، إلاَّ من قلّة تسكن بيوتًا في الأطراف.

تنتعشُ القريةُ في العطلة الصيفيَّة، يأتي بعض مَن نزح إلى المدينة لزيارتها، وفي حالات نادرة تُقام بعض الأعراس.

يرى بعض الرّعاة في الطريق، يسلِّم عليهم، الطريق الجديد بـه منعطفات خطرة، فقد جعلته الحكومة في عرض الجبال، بعد أن كانوا يعانون من طريق بطن الوادي، الذي لا يمرُّ عليه عـامٌ إلاَّ وينقطـع بسببِ السيل، فينقطع الناس، وينتظرون أيَّامًا حتَّى تتدخل البلديـة لتمهِّدَ الطريق، أو يتبرَّع أحدهم فيمهِّده على حسابه الخـاص، الآن أصبح الطريق في السفوح بعيدًا عن السيل.

الديرةُ وادٍ ضخمٌ، يتفرّع منه أوديةٌ صغيرةٌ، بيوت القرية علـى سفوح الجبال المشرفة على الوادي، وفي الشعاب.

الجبال العالية ممتدَّة في جهتيه الشماليَّة والجنوبيَّة حتَّى تلتقـي في جهة الشرق، عند ملتقى الجبال يقع شِعب آل فيوم، وهذا الشِـعب هو مبدأ الوادي، ومنتهاه، شِعب آل فيوم فيه عشرة بيوت متفرِّقـة، بعضها في الجنوب، والقليل منها في جهة الشمال، البيـت الوحيـد المسكون هو بيتهم، حيث تكون الجدَّةُ، أمَّا بقية البيوت فـلا يـأتي أهلها إلاَّ أيام الربيع، وتحديدًا أيام الإجازات، أو أوقات المناسبات.

أمَّا "البلاد" والتي هي مزارع القوم، فهي على أطراف الوادي، مرتفعة عن الأرض بقامتين؛ حتَّى لا تنالها السيول، جدرانها "العُرق" مبنيّة بحجر المكان، البلاد غير مزروعة، تحتلها النباتـات الشـوكيَّة المتطفِّلة، قلّة من البلاد قد تجدُّ مَن يزرعها لتكون علفًا للماشية.

ثمَّ إنَّ هناك بيوتَ الحجرِ المهجورة، التي لا زالت على حالهـا، وبعضها قد تهدَّم و لم يصلحه أحدٌ.

..

في الوادي يشعرُ بالانتشاءِ، فلديه الآن غنمٌ، وسلاحٌ، وذخيرةٌ، ومالٌ يكفيه لتحقيق أحلامه القرويَّة.

مرَّ على "صالحة" ليسلِّم لها بعض الهدايا من أمِّه، كانت الهـــدايا واضحةً في الكيس الذي يشفُّ عنها، قطعة قماش، كـــيس حنـــاء، وبخور، ولوز حجازي.

اقتربَ من حوشِ الدار، وقبل أن يدلفَ بسيارته، استخدمَ منبّه السيَّارة، فتطاير بعض الدجاج الذي يلتقط الرزق.

صاحتْ صالحة:

- مَن إنته يا مخلوق؟
- أنا عطيَّة الفيومي، ولد حسنة.
- حيَّاك الله.. وأنا فدا من جا..

أقبلت صالحة بثوبها الأسود المطرَّز بالألوان الزاهية، بعد أن نزل عطيَّة من سيارته، تقدَّمت إليه، وقبَّلته مرَّتين على فمه كعـــادتهم في السَّلام، ثم رأت البقرة، ومسحت على رقبتها.

- تباركَ الله.. تباركَ الله تيه البقرة للفيوميَّة؟
- إيوا..
- ساخ الشيطان.. ساخ الشيطان..

قدَّم لها الهديَّة.

- هذي من أميه.
- الله يصلحها، كلَّفت على نفسها حبيبتيه.. هيّا وجـــه الله تزلّه البيت..
- الله يعـــز وجـــه الله.. دوبـــي وصـــلت مـــن جـــدَّة، وتعبان..

- ذكر الله عليَّه، وش مع الناس تيه الأيام، يوم تقول للواحد تفضّل، تقول أنك تقلّه تعالَ للمقصلة!
- والله ما أكرهكم يا عمَّه، دخيلك مرّة ثانية.

أمرته أن ينتظر.

بعد دقائق أتت بسطلي عسل سدر، وسمن بقـــري، وكـــيس دخن.

- هذي لأمّك.

ولم تكتفِ بذلك، وإنَّما طلبته الانتظار أيضًا، وقالت له:

- ورّع!

أتت تحملُ بين يديها خروفًا أبيضَ لم يكمل الستة أشهر بعد!

- وش ذيه؟
- ولا كلمة واحدة، ذيه الخروف للكهلة، وسلّم لي عليها.

قبَّل رأسها، الذي تسكنه أوراق الريحان والكادي، تلمّه عمامة حمراء بفصوص فضيَّة، ودَّعها، بعد ربط الخروف بعيدًا عن البقرة، ثمَّ تحرَّك بسيارته إلى شِعبهم.

كان بيتُهم شعبيًّا بسيطًا بُني بجوار بيت الحجر القديم، تحوطـــه "حيضان" تزيّنها أشجار الجدة، الريحان، والشار، والبعيثران، وشجر اللوز، والذرة البيضاء، "الحيضان" تزين البيت، وتكسر حدّة الحرِّ.

يرى جدَّتهُ فاطمة، أو "الفيوميَّة" كما ينادونها في القريـــة، قـــد خرجت تنظر، جاعلة يدها اليُمنى مظلَّة تقيها الضوء القاسي.

الجدَّةُ بيضاءُ نحيلةٌ، عيناها صغيرتان، وأنفُها حادٌّ معكوف أرنبته للأسفل، شفتان رقيقتان، وأقراطُ فضة متدليَّة من أذنيها المخـــرمتين بعدّة خروم، تصل إلى خمسة خروم للأذن الواحدة، تلبس ثوبًا جنوبيًّا

أسودَ، وعليه كلُّ ألوان الحياة، على صدرها الفضة، وخواتم الفضـــة العتيقة، بعدد أصابع يديها.

ينزلُ من السيَّارة، يقبِّل رأس جدَّتهُ التي مدَّت يـــدها النحيلـــة من بين قضبان شبك السيارة تمسح رقبة البقرة، تشمّ جلدها لتتعرَّف على الرائحة، الجدَّةُ تدور وتمسح البقرة الحمراء، عطيَّة ينتظر جملـــة التعميد.

ثم نطقت:

- تباركَ الله.

ثم نظرت في الخروف في زاوية حوض السيَّارة.

- وذيه الخروف؟
- من صالحة.
- الله يصلحها.

ابتسمَ عطيَّة، ركبَ حوض السيَّارة، وحلَّ قيدَ البقرة، فأنزلهـــا، فأخذت تنظر في المكان، ثم قصدت المشرب، الجدَّةُ أخـــذت بعـــض البرسيم وطرحته لها.

...

بعد أيامٍ التقى عطيَّة بالبنَّاء اليمني "قاسم"، وطلب منه أن يقوم بترميم بيوت الحجر القديمة، بيت جدَّه خصوصًا.

عطيَّة يقول لقاسم:

- أحبُّ العمارة، والبناء يا قاسم، لا أحبُّ أن أرى الهدم.

ردَّ قاسم:

- الله يعمر البلاد بالخير والسلام.

..

كان كلٌّ شيءٍ يسير وفقَ ما يريده.

في الصباحِ الباكرِ، كان قاسم قد شرع في البناء، أمَّا عطيَّة، فقدْ صعد الجبل، لم يكن يرغب في القنص، لكنَّه أخذ معه بندقيته، كان في شوق لتفقّد الجبل، وكذلك ليرى خلايا نحلهم.

كان يصعدُ عطيَّة الجبلَ بشغفٍ، الجبلُ مأوى الأنبياء، والصعاليك، والسباع المنقرضة، يتحرَّك في قلب الشِعب العظيم، كانت أصوات الوبارة، والحجل تملأ المكان، وعطيَّة لا يسمع منه إلاَّ الشهيق والزفير، وتلوح على وجهه ابتسامة نصر حقيقيّ.

في الجبل كانت كلٌّ خلايا النَّحل عامرةً، وكان الربيع الماضي قد أثقلها بالعسل، أخذ بعض الأقراص، وجلس على جذع شجرة يتأمَّل الجبل، وينظر في النعمة العظيمة التي بين يديه.

أخذ يلتهمُ العسلَ، وأصبح يتذوَّق الحلاوة في لسانه وقلبه، آن له أن يرتاح الآن من جدَّة، ومن الحدود.

الجذور

الفيوميَّةُ

الأيامُ متجدِّدةٌ في القرية، عطيَّة يذهبُ في الصباح يتجـــوَّل في الشِعاب، يتفقَّدُ الجبالَ التي يحبُّها، "يدرّبل" على الأمكنة بمنظاره، قمم الجبال، و"أصاديرها" التي تخبِّئ حيوات صغيرة ومتنوِّعة.
ضحًّى عندما يلهثُ كلُّ شيءٍ يعود منتشـــيًا بحـــب المكـــان، ويتناول مع جدَّته القهوة "الشدويَّة".

..

عندما عرفت الجدَّةُ أنَّه اطمأن على حياة الجبل، وتفقَّـــد الخلايـــا، والسقائف، والغدران طلبت منه، زيارة صديقتها بـــوادي "الأحســـبة"، فوعدها نهاية الأسبوع أن يذهبا إلى هناك، فطلبت منه أن يحضِّـــر لهـــا سطلاً من العسل، فقام من فوره إلى إحدى الخلايا القريبة، نزع الغطـــاء الخلفيّ، واستلَّ بعض أقراص الشمع الداكنة، وأخذ يعصرها بكلتا يديـــه في "يوف" القدر، كان عسل "السّمُرة" داكنًا، شديدَ الحرارة والوقع.

..

ذهبا للزيارةِ بعد أيام، كان وادي الأحسبة من الأودية العظيمة، وتسكنه قبائل متعدِّدة، أنزل جدَّتهُ عند صديقتها القديمة، كانت من

الأشراف الذين نزلوا واديهم ذات زمن بعيد.

استقبلهم صاحبُ الدار، ورحَّب به، "وعلَّم" عطيَّة، وردَّ عليه الشريف بـ "علم" مثله، شربوا القهوة والشاي، بعد مرور ساعة خرجت الجدَّةُ معلنةً انتهاء الزيارة، أصرَّ الرجل أن يأخذا واجبهما، لكنَّ عطيَّة أخبره أن لديه ارتباطًا آخرَ في الوادي.

العجوزُ طلبتْ من صديقتها بعضَ الريحان، والشار من حوضها.

وهما في طريق العودة، طلبت الجدَّةُ من عطيَّة المرور على القبر الوحيد هناك.

كان قبرًا تحت "سدرة" ضخمة، بعيدًا عن البيوت، بعيدًا عن الطريق، ظِل السدرة الكبير لم يكن تحته معلمٌ، أو أمارةٌ تدلُّ على أن هناك شخصًا له مكانة رفيعة في الوادي، كانت ثمار النبق الضامرة تكسو الأرض بلون بني قاتم، لم يكن للقبر أبعاد، مجرد صخرة مدبّبة موضوعة في ذلك المكان.

الذي يعرفه عطيَّة أن صاحب القبر أسدى معروفا لأجداده القدامى، لكنَّه لم يسأل جدَّتهُ عنه المرَّة الماضية، عندما زاروا القبر.

وضعتْ جدَّتهُ بعضًا من الريحان والنباتات على القبر، كانت الجدَّةُ رافعةً يديها وهي متَّجهة نحو القبلة، كان عطيَّة يتأمَّل الصدق في قسمات وجه جدَّته قبل أن تمسح بيدها على وجهها.

فتحَ باب السيَّارة لها، ثمَّ توجَّها إلى القرية، وهما في الطريق سأل عطيَّة جدَّتهُ عن صاحب القبر.

ذكرتْ جدَّتهُ أنَّ الحكايات والقصص تلدُ في مصر، في مدينة "الفيوم" تحديدًا، هناك الرحم الكبرى للقصص والحكايات، هناك تولد، ثم تنتشر في أنحاء الكون، الفيوم تبعثُ للدُّنيا أجمل القصص؛

لهذا كانت الإشارة المقدَّسة في "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"
لم تكن الغرابة ذات وقع عندما عرف أن موطن جدَّتهُ زينب هي
نفس ديار النبي يوسف عليه السلام، وأن بذرة جدَّته غاصبة
الفيوميَّة كانت هناك!

1230هـ

ودَّعت الفيومُ زينب ومحمود مثلما تودِّع جميعَ مَن يريد الحـــجَّ، صنعوا طعامًا لهما، وقدمت لهما بعـــض الأمـــوال كمســـاعدة في رحلتهما الوحيدة في الحياة.

بعد أيامٍ اختارا سفينة تجاريَّة قاصدة مينـــاء القنفـــدة؛ لتزويـــد القوات العثمانيَّة بالمؤن، وستكون محطتها الثانية جدَّة، هذا مـــا ردَّده أحدُ البحارة في الميناء.

ركبوا الموجَ قاصدين الميناء الذي تسيطرُ عليه القوات العثمانيَّة، والذي يُعدُّ من أشهر الموانئ على البحر الأحمر في تلك الأيام.

في ذلك الوقت كان "طامي بن شعيب" بجيشه الصـــغير ينظـــر خلفه إلى "القنفذة" متحسِّرًا، ترك ميناء القنفذة الذي يشكِّل أهميَّة له وللجنوبيين فـــ "محمد علي باشا" قادمٌ بجيشه العظـــيم مـــن مصـــر للسيطرة على الجنوب، والقضاء على المتمـــرِّدين، قاصـــدًا القنفـــذة بمينائها الحيويّ.

"طامي" يفكّر في سلامة رجاله الذين لم يبلغوا الألف، كيف له أن يقاوم جيشًا مجهَّزًا بآلة حرب عظيمة، بالإضـــافة إلى مليشـــيات

حربيَّة "مقدونيَّة" متمرِّسة على احتلال دول، وليس بلدة صغيرة مثل "القنفذة".

قرَّر "طامي" ألاَّ يدفع برجاله لمعركة غير متكافئة؛ لهذا اتَّجه إلى دياره عسير.

..

بعد استقرارِ القوات العثمانيَّة في بلدة القنفذة، بدأ طامي يجهِّز جيشًا لطردهم، وانضمَّ إليه رفيقُ دربه بخروش بن علاس بقبائله، وتقابلا بجيشهما في أرض قريبة من "المظيلف".

الجيشُ الجنوبيُّ الذي تجاوز الـ (عشرة آلاف) مقاتل، فاجأ قوات الأرناؤوط بالقرب من مصادر الماء في وضح النهار!

الجنوبيون عراةُ الصدورِ، لا يحملون سوى السيوف، والجنابي اليمانيَّة، والقليل من بنادق "المقمع".

الصحائفُ تبعثرُ ضوءَ النجمِ، النقعُ يغيب بنادق "الأرناؤوط" الـ (مئة والخمسين)!

تقهقرت القوّة ذات الأصول "المقدونيَّة" التي كانت مضربَ مثلٍ في البطش، والتنكيل بالخصوم.

هربوا إلى داخل البلدة!

العثمانيّون في القنفذة شاهدوا ما جرى، حاولوا أن يسيطروا على وضع جيشهم، لكنّ الفزع بعثر القوّة، فأصبح كلٌّ واحدٍ منهم يبحث عن النجاة.

"البحر.. البحر" هكذا تصايحوا في بعضهم.

قائدهم صعد السفينة، وأمر برفع الأشرعة، والمحظوظ مَن لحِقَ بسفينة وركبها، لكنَّ السواد الأعظم أدركهم القوم قرب الساحل،

بنادقهم ذات الطلقة الواحدة، لم تجارِ خفةَ صفائح القوم التي أخذت تنال من أجسادهم؛ حتَّى امتزجت دماؤهم برمال الساحل، وامتزجت بالماء الأجاج.

الثوّارُ الجنوبيون استعادوا "القنفذة" مرَّة أخرى، حازوا الغنائم، قرع الزير، ثم قامت العرضة احتفالاً بالنصر.

..

محمود وزينب ينظران في سفينتهما الهاربة نحو الغروب، لا يملكان من الملبس إلاَّ ما يحملانه فوق أجسادهما، لا زاد ولا راحلة، ولا مال يحملهما للعودة رغم رحمة الشرط.

البلدةُ تعيشُ حالة من الفوضى، والسلب.

محمود يذهب، يبحث عن القوت لزوجه الحامل، إلى أن يجدا فرجًا لكربتهما.

..

في اليوم التالي، وبينما محمود وزينب يبحثان عن الظلِّ للراحة، مرَّ جمعٌ من الرجال متوشِّحين البنادق "العصملّي"، والجنابيّ العتيقة، يتقدّمهم رجلٌ يبدو أن له حظوةً، تردَّد محمود قبل أن يستوقف الرجل ويسأله بالله أن يسمعَ له، توقّف الرجل، كان جسيمًا، وعلى وجهه أثرُ جرحٍ غائر، وأخبره محمود أنّهما أتيا للحج، وقد انقطعت بهما السبل، بعد أن فرَّ العثمانيّون بسفينتهم، وذكر أنَّه لو كان لوحده لما انتظر ساعة، ولذهب إلى غايته، لكن بصحبته زوجته وهي حامل.

طلبَ الرجلُ من أحدِ أتباعه أن يأخذَ الرجل وزوجته إلى الخان، ويكونان تحت ضيافته.

في المساءِ نادى المنادي؛ مَن كان قاصدًا بيت الله الحرام، فبعد الفجر ستسير قافلة، أمر بها الأمير "طامي بن شعيب".

استبشرَ محمود وزوجته، كانت زينب تبكي من الفرح بعد سماع النداء، فقريبًا سيكونان في الأراضي المقدسة، وسيمكثان هناك إلى ما بعد النسك، وسينتظران مولودهما القادم بجوار بيت الله.

وهما في تلك الحالة من الحبور، سمعا طارقًا بالباب، فتح محمود الباب، فكان ذات الرجل الذي أمر بضيافتهما، طلب منه محمود الدخول لكنّه رفض، الرجل ناول محمود صرَّةً مليئةً بالملابس، وصرَّةً أخرى صغيرةً، وطلب منهما الدّعاءِ قبل أن يغادر.

كان محمود مندهشًا من عظيم الصنيع، عندما اكتشف هو وزينب أنَّ الصرَّة الأخرى كانت مملوءةً بالفضة، الفرح كان يفوق وصفهما، والفأل الطيب، كان قرينهما.

في صباحِ اليومِ التالي سأل محمود عن الرجل، فقيل له: "بخروش بن علاس".

..

بعد أيامٍ قليلةٍ من سير القافلة، داهم المخاض زينب؛ ممَّا جعل محمود ينزل بها لقرية من قرى تهامة، تُدعى "المضحاة" علَّهُ يجد قابلة لزوجته، لم يعلم أن كلَّ النساء في تلك القرى يقمن بتلك المهمَّة، ولج محمود القرية، وقصد بيتًا في من بيوتها القليلة، ووجد أناسًا يحتفون بالضيف، ويكرمون الغريب، بعد يومين من المخاض ولدت زينب، وضعت بنتًا، ولأنَّها غصبتها أن تلد في ذلك المكان القصيّ سمَّتها "غاصبة"! كان أملها وزوجها أن يسمّيا مولودهما بمشعر من

المشاعر، فإن كان ولدًا، سمّوه "عرفة"، وإن كانت بنتًا سمّوها "منى"، لكن "غاصبة" كان لها رأيٌ آخر.

بعد أن اطمأنَ محمود على زوجته، وطفلته، قسّم المال بينه وبين زوجته، وأوصى مَن آواهما خيرًا بزوجته، وابنته، وأخبرهم أنَّه سوف يأتي بعد أن يتمَّ نسكه مباشرةً، ضمّ محمود يد زينب وهـي تعـاني الوهن، وقبَّلها، وقبَّل جبين "غاصبة"، ثمَّ صرف وجهه سريعًا؛ حتَّى لا ترى زينب دموعه.

...

انتهتْ زينب من أيام النفاس، و لم يأتِ الزوج!

سألت عنه بعض مَن قدموا من الحجِّ، لكنْ لم تجد مَن يسـعفها بجواب.

ثمً دفعت نصف المال الذي أعطاها لها محمود لأحـدهم؛ كـي يذهب ليبحث عنه في مكَّة، لكنَّه أيضًا لم يقف له على أثرٍ!

..

في ذلك الوقت بدأ محمد علي باشا بالتفكير جـديًّا في قيـادة القوات العثمانيَّة بنفسه؛ لإنهاء مشكلات الثوار في جنوب الجزيـرة العربيَّة، وللقضاء كُليًّا ونهائيًّا على ما يسمِّيهم بالوهابيَّة الخوارج.

وفي آخر محرم أمر محمد علي باشا كلَّ جنوده بقيادته، بالتقـدّم إلى منطقة "بسل" بالقرب من الطائف.

وفي وادي "بسل" ذاق جيش "بن سعود" وحلفائه هزيمةً نكراءَ على يد محمد علي باشا، وتفرَّقت جموعهم.

ثم بدأ محمد علي باشا في تجهيز العدّة للقضاء على بقايا الثوّار في جنوب الجزيرة العربيَّة.

عرف "بخروش" أنَّ "محمد علي" سوف يلحق به، لهـــذا قـــام بتحصين مواقعه في قريته، وقام أيضًا بعمل بعض التشكيلات الدفاعيَّة من أبناء قومه.

وفعلاً شهدت القريةُ معركةً شرسةً بقيادة "محو بك" اســـتمرَّت ست ليال دون توقّف، فقد تمكَّن ذلك القائد من نصب المدافع على الجبال المطلِّة على قلعة "بخروش"، ودمَّر بعض أجزائهـــا الخارجيَّـــة، فتمكَّن الأتراكُ من قتل عددٍ كبيرٍ من أبناء قبيلة بخروش، واستطاعوا أسر عددٍ آخرَ لا يُستهان به، على رأسهم بخروش!

..

وصلَ بخروش لمحمد علي مأسورًا، فأمر بقتله، وقطـــع رأســـه، وعندما مرّوا بوادي "الأحسبة" حُفر لجسد بخروش حفرةً، وقُـــذف فيها، أمَّا الرأس فبقي معهم!

..

سمعتْ زينب بمقتل الرجل الذي قدَّم لهم العون، أحزنها ذلـــك كثيرًا، إذ إنها فكَّرت أن تبحثَ عنه مرّة أخرى علَّـــهُ يســـاعدها في البحث عن زوجها، أو يرسل مَن يبحث عنه، لكنْ قطعُ رأسه، قطعَ أملها الأخير.

لم تجدْ بُدًّا من المكوث في "المضحاة"، فهي لم تعدْ تملك خيـــارًا إلاَّ الانتظار، الانتظار المطلق المنهك، فهي على يقين أن (محمـــود) لم يمنعه إلاَّ المكروه.

شِعبُ آلِ فيوم

البيتُ الذي آواها أحسنَ مثواها، وصاحبُ الدار على كرمٍ وخلقٍ، وهي تحاولُ أن تسعى لخدمتهم، وتحاول أن تكون قريبةً من صاحبة البيت؛ حتَّى لا تشعرها بالريبة، أو الثقل من حضورها الذي لا تدري إلى متى سيكون.

زينب لا تملك من أمرها شيئًا إلاَّ لانتظار، والنظر الدائم إلى الطفلة، زينب تخرجُ من فمها جملٌ متضجرةٌ من كونها أنثى!

تُخْرِجُ ثدييها بعدَ أن ترضعَ غاصبة، وتدرَّ الحليبَ الذي أصبح يحرجها مؤخرًا، فيبللَ ملابسها، ثدياها يفيضان عن حاجة غاصبة، حاولت أن تُرضعَ إحدى الرضّع في البيت، لكنَّ صاحبةَ البيت نَهَرَتْهَا، وسحبت الطفل من حجرها، وسالَ الحليبُ، ولم يتوقفْ إلاَّ بعد أن قامت بعصر ثدييها طويلاً.

تعجّبت من موقف المرأة القاسي، فهي نحيلةٌ، وثدياها ضامران، والطفلُ يبكي كثيرًا رغبةً في حليب أمّه، لكنَّها تفضِّل أن تعطيه من لبن الماعز!

ثم عرفت بعد ذلك لماذا نهرتها.

إنَّه حليبُ الغريبةِ، والذي قد يكون له بعض الخصال التي قــد يكتسبها الرضيع من هذه المرأة التي أتت من النِّيل!

..

زينب لم تسلمْ من النظر، فهي امرأةٌ بيضاءُ ممتلئةٌ، الشحمُ غيَّب بعض أمارات جمالها، لكنَّها بدت شهيَّةً ومثيرةً لصاحب البيت، الذي أخذ ينزعج من التصوّرات، فذهب إلى أحد الفقهاءِ يستشيره في أمر هذه المرأة المقطوعة، والذي بدا يفكِّر فيها كثيرًا.

فحثَّهُ الفقيهُ أن يذهبَ أربع حجج للبحثِ عن الرجل، فــإذا لم يجده يفاتحها بالرغبة.

وهكذا أصبح ينتظر الرجل أواخر الأعوام؛ حتَّى يبحثَ عــن محمود الفيومي، الذي ذهب إلى الحجَّ، وانقطعت أخباره.

عليٌّ يرى أن زينبَ تستحقُّ العناءَ، وزوجته بدت تتضايق مــن حضور امرأة مثل زينب في البيت، مجرّد مشيتها في البيــت، ورؤيــة رجرجة مؤخِّرتها يجلبُ لها الصداع، فكيف هو الحال مع الزوج، هذا غير وقاحات نساء القرية، وحديثهنَّ عن خطورة تلك المــرأة علــى حياتها، واستقرارها، حتَّى أن إحداهن بلغت بها الوقاحــة أن قالــت لزينب:

يمكن يوم يُمسِّك يتصوَّرها!

زينب الوحيدة التي تحمل النوايا الطيِّبة، تنتظر الــزوج، تنتظــر عليًّا ليأتي بالأخبار، تنتظر، تخدم البيت، وترضع غاصــبة، وفي كــل رجب تذهب إلى وادي "الأحسبة" هي والطفلة؛ لتزور قبر الرجــل الذي أسدى لهما معروفًا عظيمًا لن تنساه زينب، ولا ذريتــها مــن بعدها.

مرَّت أربع حجج، وفاتح عليٌّ زينبَ في رغبته بالزَّواج منـــها، وجعلها تفكِّر.

فكَّرت كثيرًا في الرحيل، أو المكوث، لابـــدَّ أن تضـــع حـــدًّا للانتظار، فقبلت الزَّواج من عليٍّ، وزوَّجها الفقيه، وطلبت زوجـــةُ عليٍّ أن يُسكِنَ "الفيوميَّة" في بيتٍ آخر، فلزمها ذلك اللقب، ولـــزم "غاصبة" وذريتها.

تتأمَّلُ زينب حالها، وما آلت له الأمور، تتنهَّد أحيانًـــا، تعـــزِّي نفسها بأنَّها خُلقت لتأتي إلى هذا المكان من الأرض، إلى هذا القريـــة في تهامة، لتصبح زوجة رجل آخر.

..

تمرُّ الأعوامُ، تكبرُ "غاصبة الفيوميَّة"، فتتزوَّج من أحد شـــباب القبيلة، فينزوي معها في أحد الشعاب، سيُعرف فيما بعد بشعب آل فيوم.

..

قرنان من الزمان تحاول الفيوميَّة أن تلمَّ أطراف الحديث فتعجز، تكتشف بعد كل حدث تحكيه أنَّها فوَّتت تفاصيل أخـــرى، ربَّمـــا ستأتي على ذكرها لاحقًا.

ستموت الفيوميَّة، ولن تنتهي حكاياتها، وهذا ما يعجب عطيَّة في جدَّته.

قَنْص

الوبرِ

عطيَّة مع غنمه في الجبل، بصحبة كلبه "غنَّام"، شرب من غدير "الفية"، ثم مكث في سقيفة "الراعي".

في قريته حتَّى الجمادات لها أسماء، الجبال، الشِعاب، الغدران، الجباه، السقائف، "المحاجي" مع هذه المسمَّيات تصبح الجمادات مخلوقاتٍ حيَّةً ترتعش، في الجبل أنت لست وحدك.

لا زال متحسِّرًا على الوبر الذي لم يصبه بالأمس، وبر "جماد" هكذا يسمّونه، في منتهى الذكاء، لا يُرى إلاَّ بالمنظار، أو هاربًا من بنادق الصيَّادين.

عندما صعد له بالأمس، كان يراه بوضوح، اختار مكانًا في عرض الجبل، وأخذ يرقبه، كان الوبر في جباه عالية تحت قمة الجبل، الوبر اختار إحدى الصخور مكانًا مفضَّلاً، وكان في تلك اللحظة ينظر إلى ما يقوم به عطيَّة، دون أن يتحرَّك من مكانه، حرَّك عطيَّة "ترباس" بندقيته البلجيك من نوع مازور، تنكَّبها، يعرف "ظنة" بندقيته، لكن الوبر بعيدٌ جدًّا، ويعرف أنَّه إذا اقترب أكثر فسوف يهرب، ففضَّل البُعد، الوبر ترك مكانه، عندما عرف نيَّة الذي في

الأسفل، ذهب إلى داخل "ميباره"، وهناك أخذ يظهر ثم يغيب، يظهر ثم يغيب، وكأنَّه يسخر من عطيَّة!

طال مكوثه وهو يرقب ذلك الكائن الغريب الذي بدا وكأنَّه يعبث معه، لم تكن تصرُّفات الوبر معه فقط، بل مع جميع مَن حاول قنصه، يذكرون له حيلاً وتصرُّفاتٍ غريبةً.

كانت هذه حيلة أخرى، لا زال في مكانه ينظر في عبث الوبر معه!

ثم قرَّر أن يرميه.

ظهر فأطلق عليه النار، فنجرت الرصاصة الصخر دون أن تمسه.

ثم لم يظهر.

..

يتذكَّر تفاصيل الأمس وهو مع غنمه بصحبة "غنَّام"، يتأمَّل سارحًا في السفوح، ثم أتته فكرة فاستحسنها.

فقد عزم في تلك اللحظة أن يفاجئ الوبر هذه المرّة من مكان لا يتوقّعه، الوبر الذي يظهر ضحى ليتشمَّس، ويتحدَّى الصيَّادين بعرض نفسه لهم في صدر "جماد".

المكانُ صعبٌ عسيرٌ، لكنْ لن يخفف من مرارة الخسارة الفادحة بالأمس، إلاَّ الأكل من كبد ذلك اللعين.

عطيَّة -كعادته- إذا ذهب مع الغنم يحمل بندقيته الـ "برنو" الخفيفة، وهي تفي بالغرض، ومريحة في التسلُّق.

تفقَّد ما يحتاجه، ثم ترك الحلال لغنَّام، وأخذ يقصد ظهر "جماد"، هو بحاجة لعبور وادٍ آخرَ يوازي واديهم ليقصد ظهر الجبل.

كان عطيَّة ينزل إلى الوادي على مهل، فهو لا يريد أن يصل إلى غريمه إلاَّ وقت اشتداد شمس الضحى، الوقت المفضَّل للتشمُّس عند الوبارة، في طريقه للجبل، وجد أمامه الكثير من الحجل، وسمع القطا بقربه، لكنَّه بصدد أمرٍ آخرَ.

..

من بعيد كان يُرى التماع ظهر عطيَّة بسبب العرق أثناء صعوده الجبل، كانت البندقيَّة تنظر بعينها الوحيدة للنسور المحلِّقة في الأعلى.

الوبرُ حيوانٌ حذِرٌ جدًّا، والجبلُ مليءٌ بالأعداءِ، والمتربصين، النسور، الضباع، الوشق، الثعابين، والأشد خطورة الإنسان.

قبل أن يصل القمة أخذ عطيَّة قسطًا من الراحة تحت شجرة "قفل"، ينظر في الوادي، والشِعب الجميل، والذي هو صفًا في أغلبه يميل قليلاً للاخضرار، بخلاف شِعبهم الدَّاكن، والذي يفضحه حال القنص.

تحرَّك بهدوء شديد نحو القمَّة، كان حريصًا على مواطئ قدمه، فحركة تُسقط حجرًا، تُذهب صيدًا، فتذهب الجهود سدى.

أخرج رأسه ينظر في مكان "الميبار"، لكنَّه لم يجد شيئًا، سوى أثر البول، ونهش الرصاص، أخذ ينظر في واديهم في الجهة المقابلة من ذلك العلوّ، البلاد، بيوت الحجر، بالمنظار يرى جدَّتهُ تحت العريش، يبتسم بإجلال لتلك المرأة العظيمة، التي تسلِّيه كثيرًا في هذا الوادي العريق.

يختار مكانًا في الجبل، يجلس خلف صخرة، ويخرج من الحزام المحشو بالذخيرة، قطعة بلاستيك يضعها بين يديه، فينفخ فيها ليصدر صوتًا مشابهًا لصوت الوبر.

انتظر قليلاً، ثم أطَّلع على المكان، لم يشهد شيئًا.

قرَّر الانتظار، الشمسُ بدأت تلسعُ بسياطها وجهه، وظهـــره، لكنَّ عطيَّة يعلم أن الصيد يحتاج إلى صمت وصبر.

تبوَّل بعيدًا عن المكان، مسح رأسَ ذكرِهِ في صخرةٍ ساخنة، ثم عاد يترقَّب.

قبيل الزَّوال سمع عطيَّة صوتَ وبر قريب، انتظر قليلاً، وسمـــع وبرًا آخرَ يردُّ، يبتسم عطيَّة:

- حيَّاك الله.

يضغط على زر الأمان في البندقيَّة، يأخذ نظرةً حذرةً، فيشاهد أربعةً من الوبارة، ينخفض، ثم يعود ينظر، هو لا يريدُ إلاَّ وبرًا واحدًا يعرفه جيِّدًا، رفع رأسه فرآه.

كان على عرشه المشرف على الشِعب، مكانه الـــدائم الـــذي يتحدَّى منه الجميع، كانت الوبارة الأخرى تأكـــل مـــن شـــجرة بشام.

يرى ظهر غريمه الذي ينتظر الصيَّادين ليسخرَ منهم!

وجَّه عطيَّة البندقيَّة نحو رأسه تحديدًا.

قطرة من العرق تنحدر من جبينه إلى خشب الزان المصـــقول، المغروس في منكبه.

هدوء.

بعين ثاقبة خلف بيت النار، حيث الرصاصة تتهيَّأ، همز الزنـــاد، فثارت البندقية، فسقط الوبر تحت عرشه الصخري.

لاذ بقية الفصيل بالفرار، قفز عطيَّة في جبهة "جماد" الشـــهيرة، وقصد الوبر تحت الصخرة التي تلقَّت الكثير من الرصاص الخائب.

وجده قد سقط على وجهه بين الصخور، استغرب عطيَّة، لعدم وجود أيٍّ أثرٍ للدم عندما اقترب منه، أمسك برجلِهِ، رفعه ليرى موقع الرصاصة، وفجأة انتفض الوبر، وانقض على يده!

عطيَّة ممسكًا برجلِهِ، أخذ ينفضه بشدَّة، لكنَّ الوبرَ مصرٌّ على عضِّ ذراعِهِ، ضرب به الصخور، لكنَّه لم يتأثَّرْ، فأخذ يلوح به بيده اليُسرى، ثم جعله على الأرض، ووطئ برجله على رأسه، استغرق وقتًا حتَّى أخرج سكينه المعلَّقة في الحزام، فَرَدَّها، سحب يد الوبر، ردَّد التسمية، ثم ذبحه، ولا يزال مقدِّمة رأسه تحت قدمه.

عندما نزف كلّ الدم، جلس عطيَّة ينظر في أنياب الوبر، والتي كان سيغرسها في ذراعه قبل لحظات.

أخذ عطيَّة يبحث عن موضع الرصاصة، فوجد أنَّها شمت ما بين أذنيه، لهذا أفقدته الوعي.

بعد أن التقط عطيَّة أنفاسه، أخذ الوبر، ونزل عبر الشِعب، واتَّجه إلى الوادي.

وتحت العريش أخذ يسلخ الوبر، ويخرج الشحم، ويحكي لجدَّته تفاصيل صيده.

تعبُ البنادقِ

في عرس ابن الشيخ عيدان، شيخ القبيلــة، يصــطفُّ الجميــعُ للعرضة والرَّمي، وإطلاق الرعود من أفواه البنادق، وعطيَّة مولعٌ بشم أفواه البنادق.

بعد أن أفطر مع جدَّته ذهب إلى غرفة السلاح، أخــذ يقلِّــب بندقيته المازور الصغيرة، اكتفي بتعميرها بخمس رصاصــات، فهــو مؤمنٌ أن الرمي ليس ادِّعاءً، وهدرًا للذخيرة في ضلوع الجبال، وجباه الصخور، الرَّامي الحقيقيّ يفرّق بين التجارب والتحــدِّي، لا تمتــدُّ بندقيته للاحتمالات، بل يمدُّها لعين اليقين.

يلبس ثوبه، ويلفُّ شماغه على رأسه، يتفقَّد أحوال البيت قبــل الخروج، ثم يقصد الجموع، جموع قبيلته الــتي تقــدِّر صــباحات الأعراس.

مرَّ على البئر في باحة الدار، فغسل وجهه من حوض صغير، ثم قطع غصن ريحان، مرَّره تحت أنفه، ثم غرسه بين شعره والعمامة.

يمشي بهدوءٍ، ينظر في الطريق، ينظر في الجبال، تنظــر بندقيتــه للسماء.

يقصد مكان الدويِّ، حيث شباب القبيلة ورجالاتها.

يبتسم عندما يرى الرهط يسكبون وابلاً من النَّار على الجبل.

هو الأدنى، والأدنى لا يأخذُ دوره إلاَّ بعد عِلية القوم!

أخذ مكانًا في الخلف، وبدأ يقضم غصن بشام، وينظر لرمي القوم، انقسموا فرقًا حسب النَّسب والمكان، وأخذوا يتبادلون البذاءات، بعد كلِّ هدف يسقط أنَّه في مؤخرة فلان!

الهدفُ الذي يتحدُّون عليه يسمُّونه "الحراج" أهدافهم كانت من "المرو".

المرو كان يتساقط، الأقرب الذي في أصول الجبال، ثم الذي يعلو نحو القمم.

بقيت "مروة" وحيدة لم ينلها أحدٌ، ينظر في رميهم ويتحسَّر على الرصاص المهدور في الجباه!

بدأ الصخبُ مع سياط شمس الضحى، وبدأ التعب يلجُ القلوبَ، وبعض حلوق البنادق، كلٌّ حزب له وعليه.

أخذوا يصبُّون على الحجر الأبيض لعنًا ونارًا، لكنَّه لم يسقط، استسلم البعض، علَّقوا بنادقهم لتستريح على أغصان السدرة التي يستظلُّون بها، ثم جلسوا يتحدَّثون، ويسرقون النظر للهدف الذي خيَّبهم.

أحدهم طلب النظر في بندقيَّة عطيَّة، يقلب قطعة المازور الصغيرة، كانت خفيفة وفاتنة، فذكر أحدهم أنَّها من النوع الذي إذا أُطلقت منها عدّة رصاصات يختلف رميها!

تناول عطيَّة بندقيَّته، وردَّ عليه أنَّه لم يرمِ بها أكثر من ثلاث طلقات متتالية؛ لأنَّها لم تخذله قط.

أخذ بعضهم يسخر، ويطالبه بأن يريحهم من الحجر الأبـــيض، الذي لم يبقَ إلاَّ أن يمدَّ لسانه للقوم!

ابتسم لهم.

الأطفالُ يجمعون الـــ "صِفِر"، كلٌّ واحدٍ منهم يحاولُ جمع أكـــبر عددٍ منها، يتحمَّلون حرارتها بعد أن تخرج من بطون البنـــادق، فمَـــن يتحمَّل الحرارة، ويحسن توقيت استقبال النحاس يفوز بأكبر عددٍ منها.

من "دربيله" ينظر في الجبال، ينظر في مكان المروة العصيَّة، يقرأ المكان، رغم أنه لم يتشجَّع للمشاركة، و لم يُطلب منه.

بعد الاستراحة قصد الجميع الهدف الصامد، سكبوا عليه وابلاً من الرصاص، و لم يمسسه أحدٌ بسوءٍ حتَّى الزَّوال، وبعد الزَّوال أمـــر شيخ القبيلة أن يتوقف الجميعُ للصلاة، ومن ثمَّ تناول الغداء، وسوف يُستأنف الرمي عصرًا.

تربَّع الرجالُ بعد الصلاة على صحون "السليق"، وبعضهم فضَّل الجلوس على الصِحاف المترعة بالعيش، والمزدانة بـــاللَّحم والســـمن والعسل، أخذوا يمزعون اللَّحم لضيوفهم كعادة الكِرام، أمَّـــا لحمـــةُ الظهر فلا تكون إلاَّ لأقربهم مودَّة.

أبناءُ شيخِ القبيلةِ يحملون صحونًا يتكدَّس عليها اللَّحم؛ ليتفقَّدوا صحون القوم الذين قرموه، وهكذا يفعلون حتَّى ينتهي الضيوف من الوليمة.

يذهب البعض إلى دورهم ليرجعوا عصرًا لاســـتئناف الرمـــي، بعضهم يحضر بعد المغرب لحضور طقوس العرس، وبعضـــهم يـــأتي عشاءً من أجل العرضة، والذين لا يرغبون في شقِّ المسافات للعودة، فتؤويهم ظلال السِدر.

عطيَّة ذهب ليرتاح في منزله، ويسكب الماء للغنم القـــادم مـــن الجبل.

في البيت علَّق بندقيَّته التي لم يرمِ بها، وتخفَّف من ملابســـه، ثم نزل إلى المدور ليملأ المشرب بالماء.

سألته الجدَّةُ عن الرماية، أخبرها أنَّه لم يرمِ، وأن الرمَّاية غلبـــهم "حراجٌ" صغير توعَّدوه بعد العصر.

الجدَّةُ تطلق آهتها:

- إيههها يا ولديه قدام كانوا يرمون الرزيزة مدفونة، وذلحين الحراج كما الشمس ما يصيبونه أمصلح الله.
- القطيعة يمكن.
- والنبـــي إلا خطل!
- ما أكثرهم!
- مرَّة قام "بلحكم"، و"أولاد سعدي" يرمـــون الرزيـــزة في "عويرة"، فبرد الغداء؛ لأنَّ أحمد بن قـــدان -الله يرحمـــه- "طلَّق" أنَّه يرمي "الصفرة" مدفونة على بعد عشرين خطوة، رماها وأصابها، ما فك بينهم إلاَّ الحرفيّ يوم قال:

سوى.. سوى فوق الرزيزة..

وفي محاجي برعمة.

- وش يقصد يا جدَّة؟
- يعني متساوين يوم نرمي في السلم، ويوم نرمي في الحرب.
- ونعم ببلحكم رمَّاية والله، المهم تغدّوا؟
- تغدُّوا بعدما سمط الغداء!

دفوفٌ

عصرًا، القوم ينظرون إلى المروة العصـيَّة بدرابيلـهم العتيقـة؛ ليتأكَّدوا من سلامة موقعها.

مَن غرسها في تلك الجبهة الصمَّاء يقسم أنَّه في مكان سويٍّ، لا يعوق الرصاص الذي يقصدها ضلع، ولا حجر.

يستمرُّ الرصاصُ، يندلقُ الرصاصُ!

شمسُ العصرِ تنسلُّ نحوَ الغروبِ.

يقتربُ شيخُ القبيلة من الرّماة، بعد أن رأى الخيبـة في وجـوه ضيوفه، أخذ المنظار، "دربل" جيدًا على المكان ومحيطه.

الرّماةُ ينظرون إلى الشيخ، يريدون أن يستأنسوا بتعليـق مـن شيخهم على المروة ومكانها، عَلَّه يجد عِلَّةً في المكان، "دربل" جيـدًا، صمت الشيخ طويلاً، ثم قرَّر أنَّه لا عيب فيه، وأردف بكلام اهتزَّ له الجمع، حيث وعد أنَّ مَن يصبه سوف يزوّجه ابنته "غالية" بشـرط الرضا!

اشرأبت الأعناقُ، وشرط الشيخ المنافسة لشاب يملك بندقيَّـة، وله رمية واحدة.

تراجع مَن كان يستعير، وبعض كبار القبيلة ترك المكان للشباب.

اقترعوا حرصًا على الضوء الآفل، اصطفُّوا بحسب القرعة، عطيَّة فضَّل الانتظار.

كلٌّ واحدٍ ينتظر طلقته الوحيدة التي يُثوِّرها من فوق "المعناز"، يستجدون الشمس أن تُبقي بعض الضوء.

"غالية" وصلها وعد والدها، وأخذت تتطلَّع مع الصبايا إلى الشبيبة الذين يعقدون آمالهم على رصاصة واحدة!

كلٌّ رصاصةٍ تنحرف تعني خيبةً لا يزول أثرها من وجه صاحبها حينًا من الدهر؛ فالخسارة -دون شكٍّ- فادحة.

الخيباتُ بدأت تتكدَّس على وجوه الشبيبة، يُهدَر الأمل بطريقة لا تُغتفَر، وضجيج البنادق يصاحبه صراخ القلوب المتحسِّرة.

عطيَّة فضَّل الانتظار، ليس خوفًا من الفشل، لكنَّه يعلم الكلام الذي سوف يواكب رغبته وقت التصويب.

الخيباتُ التي تكتسحُ أنوفَ القوم وجباههم تزيدُ في روحه الأمل.

الغسقُ الذي تجرُّه الشمسُ من خلفها بدأ يؤثِّر على الصور.

بقي أمامه شخصان أحدهما فشل اللحظة، والآخر يسحب مؤخرته تجاه "المعناز"؛ ليأخذ مكانًا جيِّدًا للرمي.

قرَّر عطيَّة أن يرميَ من أجل عيني "غالية".

الجميعُ ينتظرُ الرَّامي الذي يظنونه الأخير، والذي أرهق عنق بندقيَّته فوق "المعناز"، حتَّى غاب الهمسُ، وأصبح الانتظار سيِّدًا، ثم دوَّت البندقيَّة مسجِّلةً خيبةً فوق خيبات أخرى.

بقي عطيَّة، قطع لغط القوم، عندما حرَّك "ترباس" بندقيَّته!

وكما توقَّع بدأ الهمزُ واللمزُ، واعترض بصخب "هيَّاس" ابن الشيخ على مشاركة عطيَّة.

- الفيوميُّ ما يرمي!

نهض "حنش"، وطلَّق أن عطيَّة يرمي، أو لن يحضر العرس!

حدث لغطٌ شديدٌ، فغيابُ حنش عن الفرح، حدثٌ عظيمٌ، وكبيرةٌ في حق القبيلة، حنش عندما يقول كلامًا يفعله، تقدَّم الشيخ من حنش، وطلب منه أن يهدأ، فالأمرُ مجرّد تسلية ورماية.

تدخَّل هيَّاس:

- الفيوميُّ ما يرمي!

قاطعه الشيخ:

- يا ولد أصه، الفيوميُّ يرمي، ما تعترض لو أبيع البلاد!
- أولادُ المصريَّةِ ما يرمون!
- قلتُ يرمي، خابت أمُّك!

قام بعضُ الناس بتهدئة "هيَّاس"، ووبَّخه البعضُ على اعتراضه لأبيه أمام الملأ. وبدل أن يضع عطيَّة عنق بندقيَّته على "المعناز" جالسًا، وقف ووضع قدمه عليه، تنكَّب البندقيَّة بثقة، فزاد ضحكُ القوم ولغطهم، وأصبحت السخريةُ المقيتةُ تقصده!

غالية تنظرُ إلى المشهد، ويخفق قلبها، تنظر من بعيد لبندقيَّة "عطيَّة" الممتدة كثعبان أغبر فوق ذراعه اليُسرى، مصوّبة نحو البياض الصغير الذي بدأ يغيِّبه الظلامُ.

..

يكتمُ أنفاسه، يغمضُ عينًا، بيده مقاليـــد التّصـــويب في تلـــك اللحظة، الإبرة المغروسة فوق فوّهة البندقيَّة تتلاشى في ظلمة الغسق، فجأة سُمع وابل رصاص، يعلن قدوم العروس، سارعت القبيلة نحـــو الموكب للردِّ على الرصاص بالرصاص؛ ترحيبًا بالعروس وأهلها.

النساءُ يضربن الدفوف، يستقبلن العروس.

عطيَّة، كان وحيدًا في المكان، سحب "ترباس" البندقيَّة، فقفزت الرصاصة من بيت النار، التقطها من الأرض، ثم أخذ يلـــوك غصـــن البشام الصغير، وينظر في النيران الصاعدة في السماء.

سِرّ جيله

في الصباح تتثاءبُ الحياةُ في القرية، زقزقة "الصـــعوة"، ثغـــاء الماشية، رائحة حطب لصنع الخبز، ضوء الشـــمس يتســلَّق ظهـــور الجبال، يتحدَّث مع جدَّته وهي تصنع قهوة القشر، يحدِّثها عن رماية أمس، ويخبرها عن نبز القوم له، فتخبره أن ما يؤلمهم أكثر هو تجاهله لهم.

- الله يهب لك حظ "عليٍّ سر جيله" يا ولديه.
- وش قصّة حظ عليّ سر جيله يا جدَّة؟ أسمعك تذكرينه كلَّ حين!

وبدأت الجدَّةُ تحكي القصَّة؛ والتي بدأت بوفاة والد عليّ ســـر جيله.

كان عليٌّ أوسطَ الأبناءِ، وكان قذرًا، ولا يحبّ أن يجالس النَّـــاس، يعتزل البشر كثيرًا، فتآمر عليه أخواه الأكبر والأصغر، فحرماه الـــورث، ولم يعطياه سوى سيف قديم ملفوف في قطعة قماش بالية، ثم طرداه.

ذهب عليٌّ إلى بلدة أخرى، كان غريبًا يقصد المســـاجد ينـــامُ فيها، وقد يتصدَّق عليه أحدُ المحسنين ببقايا طعام، لم يشغل عليٌّ أمر

أخويه، ولا أمر الإرث، كان مشغولاً ببعض الدمامل في ساقيه، والتي كانت تجمع الذباب حوله، فكان يتسلَّى بقتلها، وفي يوم من الأيام، أحصى الذباب الذي فتك به، فوجد أنه قتل ألفًا، وألفًا مصابة!

وبينما هو يسير في البلدة، وجد حدادًا، فطلب منه أن يـــنقش على السيف "قاتل ألف، ومستأسر ألف، والباقي على الله" فـــنقش الحدَّادُ.

في تلك الأثناء كانت البلدة على وشك الاجتياح مـــن قِبـــل إحدى القبائل، فوجد أحدهم عليًّا نائمًا عند باب أحـــد المســـاجد، وقرأ النقش المكتوب على السيف، فذهب لحاكم البلدة، وأخـــبره، وقال له: إن هذا الرجل هو الذي سيدفع الأعداءَ عن البلـــدة، أمـــر الحاكم بجلب علي سر جيله، فأخذوه إلى الحمَّام، وألبســـوه لبـــاس القادة، وهو لا يعارض، ثم ساقوه إلى أرض المعركة، ووضعوه فـــوق الحصان، فرفض أن يقود الجيش، فقالوا لتواضـــعه، فربطـــوه علـــى الحصان، ثم ضربوا الحصان على مؤخّرته بســـوط، فـــانطلق تجـــاه الأعداء، حاول أن يخلِّص من نفسه فلم يستطع، فرأى أمامه شجرة، حاول أن يتعلَّق بها فقلعها من جذورها، استمرَّ الحصان منطلقًا تجـــاه العدو، وعندما شاهده الجيش الغازي مقبلاً نحوهم بالشـــجرة، دبَّ الخوفُ في قلوبهم، وقالوا: إذا كان هذا واحدًا منهم، فكيف بالبقيَّة؟ فانهزمَ الغزاةُ!!

احتفل أهلُ البلدةِ بالنّصر، وزوَّج الحاكمُ علي سر جيلـــه مـــن ابنته، ثم انتقل له الملك بعد وفاة الحاكم!

- الله يرزقنا حظّ عليٍّ سر جيله يا جدَّة.
- آمين يا فرخيه.

يتناولُ فنجانَ قهوةٍ مع بعض التمرات، لحين أن تنتهي جدَّته من خبز أقراصها الرقيقة، ينزل من عليّة بيت الحجر، إلى الزربة، يفتح بابًا قد صدئ، ليخرج الغنم ويستقبله "غنَّام"، ويقوده إلى المرعى.

يعودُ إلى جدَّتهِ، فيرى أقراص الحنطة ساخنة مرنة، يقطعها ثم يغمسها بالعسل المخلوط بالسمن، يكتفي بنصف رغيف، تطلب منه جدَّته أن يتزوَّد قبل أن يذهب للرمي، لكنَّه يخبرها أنْ سيعود له لاحقًا، يشرب شايًا صنعته الجدَّةُ على الحطب، مسح أثر السمن على شفتيه، ثم قصد الجماعة للرّماية.

يراهم يتناولون إفطارهم، يدعونه للإفطار، فيخبرهم أنَّه سبقهم.

بعد الإفطار يتهيَّأ الجميع للرّماية، قبل أن يشرعوا، يرفع "حنش" يده يوقفهم، فيخاطب شيخ القبيلة، إذا كان على وعده بالأمس، فأخبرهم الشيخ أنَّه على وعده، تدخَّل ابنُ الشيخ متحفِّظًا، فنهره والده.

عطيَّة -بهدوء- وضع البندقيَّة على "المعناز"، لكنَّ شبابَ القبيلة طلبوا منه أن يتَّخذ طريقة الأمس.

ابتسم عطيَّة وقال:

- أبشروا.

وقف، وضع رجله على "المعناز"، حتَّى أصبحت ركبته على مستوى صدره، وبمرفقه اتَّكأ عليها، مدَّ البندقيَّة. الضياءُ كان كريمًا، ينظر عطيَّة فيه، كان واضحًا، من ثلمة النيشان إلى رأس الإبرة، التي أخذت تشمُّ الهدف، أطلق عطيَّة النار، فذهبت الرصاصة بجزئه الأعلى!

وهنا وقع الجدل "هيَّاس" ابن الشيخ قال إنَّه لا يُعتد بهذه الإصابة، وقال بعضهم إنَّها إصابة، تدخَّل "حنش"، وقرَّر رمية أخرى طالما أنَّه أصابه، ولابدَّ من سحقه!

مدَّ عطيَّة بندقيَّته، فرفعت "الدرابيل" للنظر في بقايا تلك النقطة البيضاء الصغيرة.

ثم غبار أبيض، غبار أبيض بين "الصفيان".

ذهولٌ سيطر على الجميع، وحده حنش مَن ابتسم.

...

في ذلك المكان، حيث اجتمع الشيخ بأعيان قبيلته، وشبابهم، وقال:

- تستاهل غالية، بشرط الرضا، المهر خمسين ألف "مغسلة مكفنة"، متى ما جمعت مهرك حيَّاك الله.

الحجلُ

في القرية ينشأ عطيَّة خلقًا آخرَ، يشعر بالراحة، يذهب التـــوتر، حدَّته تزول، جسده يباشر الشمس، يعرق، يأكل من صيده، يستحم في الغدران مرَّة في الأسبوع، إنَّه يحيا في الديرة.

لكنَّه اختلف بعد رميته الأخيرة، أصبح قلقًــا يقضــم أظــافره كعادته في المدينة، ينتظر ردّ غالية بعد أيام.

أمام هذا التفكير أخذ بندقيّته البرنو الخفيفة، ودربيله، وذهــب للجبل، كان الوقت مبكِّرًا، القنصُ هو الممارسة الوحيدة التي تُعيــد تهيئة الحياة بعد فوضاها، تجلو الهمَّ، القنصُ إنجــازٌ عظــيمٌ في حيــاة القروي، تكريسٌ لمفهوم الــرزق، والرضــا بالقســمة، والشــعور بالاكتفاء..

يجلسُ في أحد الشِعاب، ينتظر، والانتظار في الجبل ليس كالانتظار في المدن، في المدينة يتسرَّب المللُ كسُمٍّ يفتك بمنابع الابتهاج، ويتــراكم على مفاصل الحياة، فتكون الرغبة في الانحشار في زوايــا الأسمنــت، في الجبل الأمر يختلف تمامًا، ينظر الإنسان إلى تفاصيل الحيــاة الضَّــخمة، والصغيرة، في الجبل ترغب في الصمت، فتزعجك القــرود بصــياحها،

تترقَّب الصيد، وتشاهد العقاب يترصَّد معك، تتعلَّم من الحيوانات، والطيور، التعايش، والتضامن، في الجبل ليس هناك اعتداءٌ من أجل الطغيان، وحب التملّك، كلٌّ الكائنات في الجبل، تكتفي بقوَّتها اليومي، ثم تدع الحياة تسير، كلّ في فلكه، ووفق اختياراته.

وهو في طريقه نحو الشِعب مرَّ بغدير، كان كدرًا بالطحالب، وبعض شراغيف الضفادع.

قبل أن يشرب شاهد نحلةً في الماء تكاد تغرق، وهي تحاول أن تخلِّص جناحيها من الماء، مدَّ عطيَّة سبابته من تحتها، ثم رفعها، ووضعها على غصن شجرة "مظه" قريبة، يهمس لها:

- احمليني إذا تنكبت على الصراط!

..

الشِعبُ يشرفُ على جبلين، وتحت سدرة ضخمة جلس ينتظر الرزق، التأمَّل يلوّثه الذباب الأخضر المزعج، يضع خمس طلقات في المخزن، يسحب "الترباس"، يلقم البندقيَّة رصاصة، تبقى في بيت النار استعدادًا لأيِّ حركة منتظرة، دفع زر الأمان، ثم الترقُّب، يعبر بجواره "حلبوب" فيتجاهله.

..

يسمعُ حجلاً قريبًا من المكان، أصدر عطيَّة صوتًا مشابهًا له ليستدرجه، كان قريبًا، مسح بمنظاره الجبلين، والشِعب المقابل، لم يجدْ شيئًا.

يقعُ بالقرب منه بعضُ الحجل، يمدُّ البندقيَّة، فيصيح ثعلبٌ بالجوار، فيطير الحجل، بعد نصف ساعة تكرَّر نفس الأمر، أخذ عطيَّة يبحث عن الثعلب المزعج، كان يقابله في الجهة الأخرى من

الشِعب، أشار له بيده بأن يذهب، لكنَّ الثعلب لم يتحرَّكْ من مكانه، رماه بالحجارة فصعد إلى الأعلى، ثم توقّف.

عطيَّة أخذ يحاكي صوت الحجل، فأقبل زوج منها تجاهــه، لم تباشر يده بندقيَّته حتَّى صاح الثعلب، فطار الحجل، قام عطيَّة فصوَّب البندقية تحته ليهرب، فقفز الثعلب عاليًا فوقع هامدًا، استغرب، فهــو متأكِّد أنَّه لم يقصد إصابته، لكن ربَّما الرصاصة ارتدت عليه، ذهب إليه، فأخذ يحرّكه برجله، كان يابسًا، عندما التفت عطيَّــة للعــودة لنفس المكان، نظر إليه بلمحةٍ خاطفةٍ، فوجد الثعلب قد أغمض عينه بسرعة، اقترب عطيَّة من شجرة شوحط، ونزع منها غصنًا طريًّــا، قطف الأورق، ثم اقترب من الثعلب، وأخذ يضربه بكلِّ قوّته حتَّــى أيقن أنَّه مات بالفعل، ثم تركه، لكن بعد خطوات انتفض الثعلب من مكانه فولّى هاربًا!

أخذ منه ذلك الثعلب وقتًا وجهدًا.

بعد مرور بعض الوقت، نظر بالدربيل في الشِعب المقابل، فــإذا برأس الحجل بين الصخور، وضع الدربيل بجواره، وأخــذ يُصــدر صوتًا، الحجل طالته الحيلة، ولم يصدر صوتًا تحذيريًّا حتَّى الآن، وهو بذلك يشعر بأمان، بدا الحجلُ يظهر، وأخذ يسير تجاه الشِعب الذي يقبع فيه الصيَّاد، توقَّف عن إصدار الصوت حتَّى لا يدرك الحجل مع القرب أنَّه مُفتعَل، سكن تحت جذع "عدنه"، مدَّ عطيَّــة البندقيَّــة، وضعها فوق الصدر وتحت العنق، سحب الزناد إليه، الرصاصــة لم تنحرف، استقرَّت في جوف الطير، فلم يتمكَّن حتَّى مــن الصــفق بجناحيه، وإنَّما فردهما على الأرض، ثم مال بعنقه حتَّى وقــع رأســه على صدره، لقد كانت الرصاصة في مقتل.

وضع البندقيَّة في مكان جيّد، ثم اتَّجه نحو الصيد.

تسلَّل من بين أشجار المظّ، أخذ صيده، ثم حمله إلى البيت.

في البيت ذهب للمطبخ الصغير، قام بغلي الماء، ثم وضع الطائر فيه، كان الريش سهلَ النتف، بعد أن فرغ من نتف الطـــير، قطـــع الرأس والأرجل، وتخلَّص منها، ثم فتح الصدر، أخرج الحواشي، بدت خصيتا الذكر الملتصقتان بظهره متضخِّمتين؛ بسبب موسم التزاوج، نزع القلب، والكبد، والمعدة، ورمى الباقي، قطع المعـــدة، فخـــرج الفرث، فاحت رائحة العشب، نظَّف المعدة من الفرث الأخضـــر، ثم نزع غشاءً أبيضَ على المعدة وتخلَّص منه، معدة ديك الحجـــل بـــين يديه؛ عضلة حمراء قويّة، غرس رأس السكين ثم شواها على النار، بعد أن استوت قليلاً أكلها.

قام بتقطيع ذكر الحجل إلى أربعة أجزاء، وضـــعها في القـــدر، وأضاف عليه الماء والتوابل، وقليلاً من الطحين، وترك القدر علـــى نار.

شعر عطيَّة بنوع من التحسّن، والانشراح، وذهب لجدَّته يحدِّثها عن الصيد، وهي كعادتها سوف تسرد عليه فصولاً مـــن حكايـــات أجدادها الأوائل.

في تلك اللحظة التي كان يحدِّث فيها جدَّته، كان الشيخ عيدان، وابنه الأكبر هيَّاس يتحدَّثان في شأن غالية بحضورها.

كانَ الشيخُ عيدان يتعاملُ مع الأمور بحكمة، وبخلافـــه كـــان هيَّاس الذي يتحدَّث بحِدَّةٍ ورعونةٍ.

غالية تصبُّ القهوة لوالدها، وهيَّاس يحوم في مجلس الرجال كأنَّه في حلبة صراع.

- ما بقي إلاَّ نزوّج الفيوميّ من بنت الشيخ.
- يا ولدي هذا الأمر يخصُّ أختك.
- لا.. بنت الشيخ ما تروح إلاَّ لبيت شياخة.
- تعوَّذ من الشيطان، أختك إللي تقرّر.
- لكنَّها يا يبه ما تعرف مصلحتها.

وجَّه الشيخُ حديثه لغالية:

- يا بنتي: الفيوميُّ، وأهله تعرفينهم، الولدُ سمعته طيِّبة، لكنَّه ترك العسكريّة، وأعطيته كلمةً بين القبيلة أنّي أزوّجه شرطَ رضاكِ.

هيَّاس قطع حديث والده:

- إيل فيوم صُنَّاع، وجدَّهم مصريَّة!

ردَّتْ غالية:

- لكنَّه يبيعُ الرصاص!

كان ردُّ غالية ضربةً قاضيةً مبطَّنةً بالقبولِ، أطاحت بهيَّاس الذي ابتلع لسانه في حالة غضب.

ردَّ والدها بهدوء:

- على بركة الله.

غالية

فتاةُ الأرانبِ

غالية ذاتُ القوام الممشوق، البيضاءُ كالحليب، عينان ناعستان، أنفٌ صغيرٌ متَّسقٌ مع وجهها، فمٌ خُلقَ من أجل أن يكون مبتسمًا على الدّوام، لديها مسحةٌ طفوليَّةٌ تقاوم التَّعاسة، وسنن الهرم.

انحدرت من سلالة بشعة، فالشيخُ نحيلٌ دميمٌ أسمر، والأمُّ ضخمةٌ قبيحةٌ لفحتها شمس تهامة حتَّى أصبحت داكنةً أكثر ممَّا ينبغي، بيضاءُ خرجت من بين الفرث والدم، هي آيةٌ كونيَّةٌ في القرية!

غالية أصغرُ بنات الشيخ "عيدان"، من زوجةٍ أخرى تسكنُ في الطائف، بجوار الورد والرّمان، والتوت، غالية تحب الحديث كثيرًا، لديها مخزونٌ هائلٌ من قصص النساء، والجارات، كما أنَّها مهووسةٌ بتربية الأرانب.

أعظم متعة لديها أن تشاهد المسلسلات، وهي تداعب فراء الأرانب أثناء المشاهدة، كانت الأرانب شغلها الشاغل، تقطع لها الفواكه والخضار، تعالج جروح الإناث أيّام التزاوج، لا تغادر البيت إلاَّ لمدرستها، أو ملاحقة لأحد الأرانب الآبقة.

عطيَّة لم يرَ غالية إلاَّ مرَّات قليلة، فقد كانـــت تنـــزل جـــدَّة بعد أن نصحها الأطباءُ بأن تغمس قدميها في البحر؛ بسبب بعـــض الدمامل التي ظهرت في قدميها، فكانت تنزل في نهاية كلِّ أســـبوع إلى جدَّة من أجل أن تغمس قـــدميها في ميـــاه البحـــر، في بعـــض الأحيان كان الشيخ يحلُّ ضيفًا عليهم، وكان يـــرى غاليـــة تـــأتي مع أهلها، وأخواتها اللاتي كُنَّ مختلفاتٍ عنـــها، مَـــن يـــراهُنَّ مـــن بعيد لا يشكُّ في أن ابتســـامة الصـــغرى أكثـــر إشـــراقًا ومحبـــةً للحياة.

عندما كبرت غالية، كان يتتبّع عطيَّة أخبارها من هنا وهنـــاك، في غالية أمران أُعجب بهما، أولهما أنَّها تركت الدّراسة بعد إخفاقات متتالية في المرحلة المتوسطة، فعطيَّة كان يمقـــت البنـــات المتوفقـــات اللاهثات خلف الدِّراسة، وغالية اختارت البقاء مع الأرانـــب علـــى الدراسة.

الأمرُ الآخرُ الذي أُعجب به هو غفلتها التي تسحره، فهي تلعب من الأطفال، رغم أنها بلغت مبلغ النساء، هي لا تـــدرك أن جمالهـــا أصبح لافتًا، ولا تعرف سبب غضب "هيَّاس" البغيض تحديدًا عنـــدما يراها تلعب، كانت تضرب الأرض برجلها، وتطلق شتائمَ ولعنـــاتٍ مبهمةً لَمن يقف حائلاً بينها وبين المرح، لم تصدر منها في يوم مـــن الأيام حركة مشينة، أو ملاحظة تقدح في براءتها، ونقائهـــا، كـــان بعض فتيان القبيلة يستدرجونها في اللعب، وكانت تستجيب دون أن تعرف خبث نظراتهم.

تعب أهلها معها حتَّى حجبت شعرها، لم تفهم لِمَ كلّ هـــذه المحاولات لحجبها عن الحياة واللعب؟

أعظم مصيبة عاشتها، أنَّها ذات صيف حملت جميع أرانبها معها للديرة، لقضاءِ إجازة الصيف، فلم تمض ثلاثة أيام حتَّى ماتت جميع الأرانب بسبب الحرِّ!

بعد أن تركت غالية الدّراسة، وقد كانت أصغر البنات، قرَّر الشيخ، أن ينتقل للقرية، ويمكث فيها.

ثم انقطعت أخبارها عن عطيَّة، و لم يرها بعد ذلك إلاَّ في بيته عروسًا!

غنمُ التّهاميِّ

في الصيفِ الطويل أوديةُ وشِعابُ تهامة يظلّلها التعبُ، الجبـــالُ مطوَّقةٌ بإكليل من الغبار يغشاها أغلب شهور العام.

الأرضُ لا اخضرار لها، ولا معالم؛ سوى بعض الجُدر، وأشجار السدر، وبيوت حجر تماهت مع مكان يخلو من مباهج الطبيعة.

قبل الغروب بساعة تتقدَّم غالية من فوَّهة بئـــرٍ عميقـــةٍ، بعـــد انقطاع الماء عن القرية، نزعت من قعر البئر فضلة من ماء، تســـحب الحبل، وتنظر إلى الجبال، تتأمَّل الشمس التي استراحت قليلاً فوق قمّة جبل بعيد.

سكبت الماء في برميل آخر حتَّى امتلأ، ثم حملته بجهدٍ ومشـــقةٍ لينسكب بعض الماء على وجه الأرض، فيتلاشى سريعًا بعد أن تمضي خطوة.

وأمام العريش الذي سيجلس تحته زوجها تقوم بـــرشِّ المكـــان لتلطِّفَ الأجواءَ، بعد أن أعدَّت الشاي والقهوة.

أخذت تتفقَّد زينتها، رغم أن جمالها لا يحتـــاج إلى أن تقـــرّره بالأصباغ، سرَّحت شعرها، نثرته شلالاً خلفها؛ لتباشر أطرافه أعلى

الفتنة المكوَّرة، لم تضفِ أيَّ مبيِّضات، فبياضُها الربانيُّ نبعُ إشعاعٍ لا ينقضي، زحفت بريشةٍ صغيرةٍ بعض الكحل على رموشها التي يسكنها الدفء، ثمَّ وضعت أحمرَ شفاهٍ خفيفًا لذيذًا، ثم خرجت لحرم الدار الذي تستره الطبيعة بجبل عظيم يسكنون أصله، ومن بعيد شاهدت زوجها رافعًا إزاره إلى منتصف فخذيه، عارٍ صدرُه، يحمل بندقيَّته على عاتقه، وبيده صيدٌ لم تتعرَّف عليه!

دلف المكان.

استقبلته بتودّد:

- وأنا فدا من جا..

قبَّلته، ناولها "الوبر" الذي اصطاده، أخذت تنظر في حجمه، ومكان إصابته، ثم أخذته وذهبت به إلى المطبخ.

جهَّزت ملابسه ليهنأ بحمَّامٍ يردُّ عليه بعض النشاط.

عندما خرج من الحمَّام استقبلته وبيدها المنشفة، أخذها مبتسمًا، فرك شعر رأسه، نشَّف شعر صدره، ثمَّ لفَّ بها عريّه الأدنى.

انتظرته تحت العريش الذي يبعد عن الدار بضع خطوات، وهو أقرب إلى مدخل البيت، تسمع صوته وهو يصلّي حتَّى إذا سلَّم من صلاته، سكبت الشاي برضا..

فاحت في المكان رائحةُ الشاي المعطَّر بالحبق، أخذت تحلُّ عقدة القماش عن بقية خبزة الصباح، فالخبزةُ السمراءُ التي يتناولها بعد الفجر، يجعل ما تبقى منها للجبل، أو لسدِّ الجوعة حتَّى يحين وقت العشاء، فالوبر يحتاج إلى وقت حتَّى ينضج.

هي تعرف طقوس زوجها، وحريصة على عدم الإخلال بها، تجيدُ التبعُّل بطريقة ساحرة، وعن طيب نفس، وعشق يندر أن تجده،

لا تكتفي بذلك، بل تزيّن حديثها بكلمات جنوبيَّة تقطر ودًّا، وهـــو يكاد أن يُجنَّ على هذه المرأة؛ لكنَّه كأيِّ جنوبيٍّ يكابرُ عن التصريح، وهي تعلم مقدار الود العميق في قلب زوجها الشاب، الذي لم ترَ منه سوءًا منذ أن تزوَّجا.

تثرثرُ عن تفاصيل الصباح، وعن أعمال البيـــت و"الحـــلال"، ورضاعة البهم، وسقي نباتات البيت، وخصـــف الجـــدة، وأشـــياء يسمعها كل يوم تقريبًا، لكنَّه رغم ذلك لا يقاطعها، ويجعلها تقـــول ما تريد، ويكتفي هو بشرب الشاي، وتأمّـــل الحـــديث، والجمـــال المسكوب أمامه.

هي بالنسبة له واحة المكان، مياه الغدران الباردة التي يتلهَّف له عطشى القنص، هي "غالية" ولها من اسمها نصيبٌ.

"غالية" تزوَّجها رغم اعتراض البعض أن تتزوج ابنـــة الشـــيخ منه، كلُّ هذا لم يعدْ يفكّر فيه الآن، إنَّه يسكن قلب غاليـــة، وهـــذا يكفي.

هذه المرأةُ التي ملأت حياته دونَ توقّعٍ، دونَ تفكيرٍ في الاقتران، الفتاةُ التي كان يسمعُ عن جمالها أساطير تُتلى من أفواه شبابٍ القبيلة، ها هي الآن بين يديه.

..

قبل الغروب يعود "غنَّام" بالغنم، ينبحُ بشكلٍ لافـــت بعـــد أن يدخل الماشية إلى المدور، عطيَّة يشعر بأن هناك شيئًا يحدث، خـــرج من البيت، ألقى نظرةً على المكان لم يجدْ شيئًا!

ذهب إلى الغنم كي يتفقَّده، ووجد أنَّ الشاة التي على وشـــك الوضع، لم تكن من بين الغنم!

دخل البيت، أخذ بندقيّته، و"كشافة" صغيرة، كانت الشمس حينها قد غربت.

"غنَّام" كان دليله أثناء الصعود.

الظلامُ يغشى بطونَ الأوديةِ، السفوح، الشِعاب، الظلامُ جفنٌ عظيمٌ يغمضُ على الوجود، يطال الكائنات، فتركن الحياة إلى السكون.

يفكِّر عطيَّة في العارض الذي ألَّم بالشاة؛ الذئاب، الفخاخ، التردِّي بسبب ثقل الحمل، وربَّما أشياء أخرى.

يمشي متخفِّفًا من الأردية، إزاره يغطي وسطه، وجذعه يباشر الهواء.

"غنَّام" يصعد بخفَّة ودون صوت، يتبعه عطيَّة، يسيران تحت أشجار السَّلم أحيانًا، فيخمش ظهره، يسير بإنحناءةٍ جنين في الشِعب، الغسقُ ينذر بليلٍ بهيمٍ، وعطيَّة يضع الاحتمالات مع كلِّ خطوة.

أعصاب قدميه، تتواءم مع أحجار المكان، وتضاريس الأرض.

يتوقَّف عند غديرٍ ضحلٍ، الأمطارُ لم تتكرَّم على الحياة منذ فترة، يزيح بكفِّه القذى، يدنو فيشرب منه، يقفُ قليلاً يلتقط أنفاسه، صدره يعلو ويهبط، غنَّام توقَّف في الأعلى ينتظره وهو يلهث، يدور ويظهر عليه التوتر.

ينصت لليل، علَّه يسمعُ ثغاءً، لكنْ لا صوتَ، سوى نقيق الضفادع، ورفرفة الخفافيش.

واصل صعوده، سبقه غنَّام، فشعر أنَّه اقترب من المكان المقصود، غنَّام أخذ ينبح، جهَّز البندقيَّة.

كان غنَّام يقف تحت "سمُرة" ينظر إلى شيء، توقَّع أن يجدَ عطيَّة شاته مبقورةً، لكنْ عندما اقترب زالت ملامح الريبة، واستنار وجهه، عندما وجد أن الشاة قد وضعتْ، كانت بحالةٍ جيّدةٍ، علَّق البندقيَّة على عاتقه، حمل عطيَّة الصغيرين، خاف عليهما من البرد، فأخذ أطراف إزاره، ورفعه إلى أعلى كأنَّه خُرجٌ، ثمَّ وضع الصغيرين، وأحكم إزاره.

ينحدر بهدوء من الجبل، ويتوقَّف لأنَّ الشاة تعاني الوهن بعد الولادة، كان كلَّماً توقَّف تأتي الشاة وتشمّ صغيريها من وراء الإزار.

عطيَّة في المقدِّمة تتبعه الشاة، وغنَّام يقوم بحماية الظهر من سباع الليل، غنَّام يحمي الحياة الجديدة.

..

كانت غالية في انتظاره عندما جاء، كانت ترقب المكان الذي سوف يأتي منه، خافت عليه عندما تأخّر.

- خير؟
- كلٌّ خيرٍ، وضعت الشاة؟

فتح إزاره، ناولها الصغيرين، أخذتهما، غسلتهما، ثمَّ قامت بتنشيفهما، أخذت الشاة إلى مكان لتحبسها فيه حتَّى تسترد عافيتها.

طرحت لها برسيمًا أخضرَ، وبعضَ الخبز الجاف، ثم تركت الصغيرين يرضعان.

غنَّام ذهب إلى مربضه المعتاد، وعطيَّة جلس على سريرٍ حديديٍّ، ينتظر مرقة الوبر الذي على النار.

الحقودُ يسودُ

بعد عامٍ على زواجهما ماتَ الشيخُ، فحلَّ مكانـــه "هيَّـــاس"، الذي لم يكنْ عطيَّة على وفاق معه، لقد كان يتجنَّب الحديث معه في حياة والده، فكيف سيكون الحال بعد ذلك؟!

"هيَّاس" كان على عهد والده إنسانًا ثرثارًا في المجالس، يتبجَّح، ويدَّعي كثيرًا، لم يفلحْ في شيءٍ، يعيش على أمل أنَّه مَـــن ســـيخلف والده في المشيخة، يصاحب والده في كلِّ مكان، يوهم النـــاس أنَّـــه مساعد الشيخ، إخوته يفوقونه خُلقًا وتواضعًا، وعلمًا، لكنَّه شخصٌ متعجرفٌ، كثيرُ الكلام، وأوهم النَّاس بأنَّه خليفةُ والده.

عطيَّة يحاولُ أن يتحاشاه كثيرًا، لكنَّ حادثة "الســـراة" كانـــت شرارة العداء الدائم، ففي إحدى المناسبات التي كان الشيخُ مدعوًّا لها في "السراة" ذهب مجموعة من القبيلة، وكان من بينهم عطيَّة، وكما هو معتاد في أعراف القبيلة، فبعد أخذ واجب الضيافة، والتي غالبًـــا متى تكون غداءً، فإن منافسة القبيلتين على الرِّماية تكون عصرًا.

اصطفَّت القبيلتان للرِّماية ببنادق البلجيك، كان هيَّاس يأخـــذ أدوار الآخرين، وكان يفشل في الرمي، والقبيلة متأخِّرة بهـــدفين، في

النهاية أُعطي عطيَّة دورًا، وكانت لــه ثــلاث رميــات، فســحق بالرصاصات الثلاث ثلاثة أهدافٍ متتالية، ففازت القبيلة في المنافسة، وبينما القبيلة فرحة بفوزها، نطق "هيَّاس" بخزي عظيمٍ أحــرج بــه عطيَّة، وأحرج القبيلة:

– جدَّته مصريَّة، من الطبيعي يصيبَ!

كانت صفعةً مدوية، رغم ذلك لم يرد عليه عطية، لأنَّه علــى فراش قبيلة أخرى، ابتلع غيظه، وكان الانتصار مشوبًا بانكسارٍ مرير، لكنه رد الصفعة بزواجه من غالية.

..

بعد أسبوع من تولّي "هيَّاس" المشيخة، توجَّه بسيَّارته الـ "لاند كروزر" إلى منزل عطيَّة، يسير بشحومه الزائدة نحو المنــزل الــذي تسكنه أخته.

قرع الباب ونادى:

– يا أهل الدار.

استقبله عطيَّة:

– حيَّا الله الشيخ، أرحب تفضَّل.

تصافحا، وتبادلا قُبلاً باردةً.

تقدَّمت منه أختُه، قبَّلت يدَهُ، صنعت القهوة، شعر عطيَّــة أن هناك أمرًا أقرب للشرِّ، تعوَّذ بالله من الكائن الذي أمامــه، وأخــذ يغلِّف ذلك بابتسامةٍ مصطنعةٍ؛ اتِّقاءً لشرِّهِ.

كانت غالية جالسةً، ثانيةً قدميها تحتــها، تنــاول "هيَّــاس" فنجان قهوة، ثم طلب من أخته أن تتركه مــع عطيَّــة في حــديثٍ خاصٍّ.

نهضت غالية، وقلبُها مضطربٌ، فهي لا تـــأمن مكـــرَ أخيهـــا بعد وفاة أبيها، أخذت تحدِّث نفسها وهي تطـــرحُ للشـــياهِ بعـــض العلف.

بادر هيَّاس قائلاً:

- العلم سلامتك، أنا الآن صرتُ الشيخ، وبعض الأمور كنتُ أجاري الوالد -الله يرحمه- فيها قبل لا يمـــوت، وهـــذا لا يعني أنَّي رضيتُ بكلِّ شيءٍ سوَّاه الوالد في حياته، المهم أنا ما أرغب في طويل العلم، أنت تزوَّجت أختي بغير رضاي، والوالد مات -الله يرحمه-، والآن أنا الشيخ، ومســـتحيل يستمر أمر بغير رضاي..
- المطلوب؟!
- سلامتك، أنت طيِّب، وما سمعنا عنكَ إلاَّ كلَّ خير، لكـــن مانت بكفوا تتزوَّج أختي، وأختي أبوها شـــيخ، وجـــدُّها شيخ.. وأبغيك تطلِّقها بالحُسنى، وخاصَّةً أنَّها ما حملـــت منكَ حتَّى هذا الوقت!
- قلْ والسلام.
- والسلام.
- سلمت، وعلى النبيِّ السلام، أنت شربت قهوتـــك، هيَّـــا توكَّل على الله.

قام هيَّاس من المجلس مضطربًا.

- اسمع يا عطيَّة، خلِّ الأمور تصير بهدوء.
- أقول توكَّل على الله، ولا أشمّ ريحتكً في ذيه المكان.
- طيّب يا فيومي.

أقبلت غالية عندما سمعت جلبة مغادرة أخيها من المكان، أتـــت إلى عطيَّة الغاضب، تحاول أن تحيط بما دار من حديثٍ، لكنَّ عطيَّـــة، خرجَ من البيت.

الجدَّةُ، تخرجُ من غرفتها تتعوَّذُ ممَّا ذرأ وبرأ، تحاولُ كنسَ خبثِ الخلاف، تطلبُ من غالية فنجانًا من قهوة القشر.

آلُ جُريةٍ

لم ينمْ عطيَّة ليلته تلك، كان نومه مقطَّعًا؛ بسبب تكدير هيَّاس، لذلك قرَّر أن يذهب إلى "ناوان" ليشهد السوق، ويزيح عن نفسه ما علق بها من كدرٍ.

فجرًا قرّب سيَّارته من "الزربة"، وحمَّل الأغنام التي يرغب في بيعها، ثمَّ أخذ قدور العسل وجعلها معه على المرتبة، بالإضافة لـ "خشايب" ملفوفة بالقماش لبنادق "الخرازة" التشيكيَّة، السلاح الأكثر انتشارًا في ديارهم، كان قد انتهى من صقلها قبل أيام.

قبل أن يخرجَ من الوادي مضى على "صالحة"، وأخذ منها سطولَ السمنِ البقريِّ، الذي ترغب أن يقوم عطيَّة ببيعه في السوق.

..

بدأت السوق بعد أن أسفر الصبح، يشاهد باعة الغنم، والخراف بجوار بعضهم، القصَّابون المتنقِّلون في الأسواق يبيعون اللَّحم الطازج، اللَّحم الحنيذ خرج للتوِّ من التنور، يرى خبزة الحنطة والخمير، السمك القادم من الساحل بأنواعه، الدجاج، والحجل، والوبارة، الفواكه والخضار، الحبوب بأنواعها، النباتات العطريَّة، باعة القطران،

يرى باعة السلاح الأبيض، والبنادق القديمة، يدهشه رؤية الـــذئاب، والضباع. والثعابين!

شيخُ السوقِ يلتفُّ حوله الزوَّار، يســـتمعون إلى حكايـــات، وقصائد الأوَّلين.

اختار مكانًا في السوق، غنمه الأبيض السمين يدور في صندوق السيَّارة، جلب السطول والقدور، وعرضها على باب الصندوق بعد أن أنزله، جلب الــ "خشياب" الثلاث وعرضها بجوار قدور العسل والسمن.

يأتي زوَّار السوق ينظرون في بضاعته، يأخذ ويعطـــي حـــول السعر، إلاَّ الغنم لا يرضى بالمساومة فيه، أكثر ما لفت انتباه الـــزوَّار مهارة عطيَّة في صنع خشب السلاح، الصقل، والنقش، والإنحناءات.

بِيع سمنُ صالحة في وقت مبكر، فقد كان جيِّدًا ورخيصًـــا، ثم باع عطيَّة قدورَ العسل بعده مباشرةً، شعر عطيَّة بالبهجة تتســـلَّل إلى قلبه، الجدلُ حدث حول الخشب، فقد تنازع بعض الرجال حـــول السعر، إذ إن أحدهم أعطى عطيَّة 1200 ريـــال مقابل "الخشـــيبة"، فزاده أحدهم، فحدث لغط، ممَّا جعل شيخ السوق يقتـــرب منـــهم، فقرَّر الشيخ أن يُقام مزادٌ عليها، فزادَ أحدهم مئة على المبلـــغ، وزاد الآخر مئتين، المفاجأة أتت من شخص ثالث كان يراقب المشهد من بدايته بصمتٍ، فرفع المبلغ إلى 1500 بشرط أن يحوزَ على الثلاث، لم يعترض أحدٌ، ناوله عطيَّة "الخشايب"، نَقَـــدَهُ الرجـــلُ بـــــ 4500 ريــــال.

رفع عطيَّة باب الصندوق بجبور، قدم إليه أحدهم يسأل عـــن الغنم، فذكر له أن صرف النظر عن بيعه.

قال له السائل مبتسمًا:

- إللي يبيع "الخشايب" يبيع الرصاص!

نظر إليه عطيَّة متفرِّسًا، فارتاح لمنظره.

- كم علبة؟
- أبغي ثوب؟
- 2200
- وش نوعه؟
- مكسيكي.
- تم.

سحب عطيَّة ظهر مقعد السيَّارة، وأخرج "ثوب" الرصاص، واستلم المال من الرجل.

..

يتجوَّلُ عطيَّة في السوق علَّهُ يجد ما يبتاعه، استوقفته امرأة تبيع السمك، تذكَّر أنَّ جدَّته تحبُّ "الحوت"، كما يحلو لها أن تسمّيه، أخذ منها ما يكفيهم على الغداء، مع أقراص من الخمير، وبعض الحلبة، ثمَّ توجَّه إلى سيَّارته المحمَّلة بالغنم، وذهب إلى سوق آخر.

..

عندما عاد إلى البيت كانت جدَّته في انتظاره، فقد كانت قلقة عليه بعد زيارة هيَّاس لهم بالأمس، اقتربت منه، قرَّبت منه قرصَ عسلٍ، وقدحَ حليبٍ بالزنجبيل، أعاد له بعض الحياة، الجدَّةُ تترنَّمُ بقصيدةٍ، هو يعرفها عندما تحضِّر الحكايات، تأتي بعتبةٍ تمهيدًا لقصصها، تعرف متى تمسك، متى تقصّ، وفي أيِّ مناسبة، وهكذا هي عندما تؤثِّث لياليها.

كانت الجدَّةُ تُسلِّي عطيَّة ببعض الحكايات، وبما أنَّه أتـــى مـــن السوق، فقد ذكرت قصة حدثت في سوق "أم الروباء" أحد أسواقهم القديمة، حيث إن أحد "الرفاقة" يُدعى "علي القرزع" ذهب للســـوق يبيع حَبًّا له، ولم يكنْ له مصدرُ رزق إلاَّ ما يجنيه من أرضه، فنـــزل السوق رجل "فهمي" يسأل حَبًّا، ولمٍ يكن لدى الرجل مالٌ وقتـــها، فدلَّه بعضهم على عليٍ، يريدون اختباره؛ لأنَّه لا يبيـــع إلاَّ بـــدراهم حاضرة، فذهب إليه الرجل، وطلب منه حَبًّا، فقال: بعد أن نصـــدر من السوق نذهب إلى البيت، وأعطيك ما تريد، وبالفعـــل عنـــدما وصلا للبيت ملأ له بعض الجرابات حَبًّا، فقال الرجل: لكـــن لـــيس لديَّ ما أحملها عليه، فجلب له جملاً، وحمّلاه الحَبَّ، وأرســـل مـــع الرجل ولده حسن، حتَّى يوصل الرجل لدياره، وعنـــدما وصـــلا، الرجلُ أكرمَ حسنًا، وزوَّجه ابنته، وكانت تُسمَّى "جُرية"، واعطـــاه نصف غنمه، وفي اليوم الثاني عاد حسن وزوجته "جُرية" إلى القرية، وتباركت العائلة، واطلق على البيت بيت "آل جُرية".

بعد أن سردت الجدَّةُ هذه القصة، علَّقت بفخر:

- يا ولدي ما هو نِحن بس إللي نُسبنا لمـــرةٍ، أســـرٌ كـــثيرةٌ مشهورةٌ بالكرمِ والشجاعةِ والشيمةِ يُنسبون لنساء، وبعض النساء أشرف من قبيلة من الذكور!

مِن أجلِ "الدُخنِ

كانت الحشراتُ تصطدمُ بمصباحِ الغاز، عندما استيقظ فجــرًا، تسلَّل إلى أذنيه صوتُ جدَّته وهي تتهيَّأ لصلاةِ الفجر، لم يكن مــن عادته أن ينام بعيدًا عن غالية، لكن الليالي التي يشعر فيها بالأرق فإنَّه يفضِّلُ النوم، تحت العريش حتَّى لا يزعجها.

يحملُ إبريقَ ماء، يختارُ مكانًا للوضوء، بدأت الحياةُ في المكــان، أصوات الديكة، زقزقة العصافير، يقترب منه شيءٌ في حجم القبضة، كان داكنًا، تقدَّم منه فرشَّهُ بالماء فتكوَّر، ابتسم للقنفذِ، فعطيَّــة لــه علاقة مع دواب وحيوانات البيت، حتَّى الحيَّة التي تســكن ســقف إحدى الغرف، يمنع أيَّ أحدٍ يتعرَّض لها بسوء، الوبارة التي تأتي مــن الجبل أوقات الصيف تبحث عن الماء والكلأ، لا يمدُّ نحوها بندقيَّــة، وإن كان يرغب في مرقتها أحيانًا.

السماءُ تتثاءبُ، والجبالُ تردِّدُ صدى "طه".

يشاركُ جدَّتهُ فنجانَ قهوةٍ، وبضعُ تمراتٍ، يتحدَّث مع غالية عــن الشاةِ حديثة العهد بولادة، فأخبرته أنَّها بدأت تذهب للمرعى من أيام.

..

ملأ بطن الحرَّاثة بالوقود، ثم أخذ يحرثُ الأرض، يتعجَّل قبل أن تظهر الشمس التي يحجبها الجبل، فلا تظهر لهم إلاَّ قبل الزوال بساعة، وهو يحرث تأتي بعض الطيور التي تقتات بعض الدود والحشرات بعد تقليب التربة.

سوف يبذرها قبل هطول المطر، ينوي أن "يذراها" دُخنًا هذه المرَّة، يقدّر "أبا علي" كثيرًا، هذه كُنية الدُّخن في ديارهم.

يشاهد جدَّته تحرِّك "مُواصّ" بقرها، علَّها تدرُّ بعض اللبن، ينظر في السماء بعد أن يمسح عرقه، لا شيء في السماء إلاَّ أن الغبار قلَّ، أصبح الجوّ يصفو ويتحسن.

عندما طلعت الشمس كان عطيَّة قد انتهى من حراثة أرضه، وهي أرضه الوحيدة، والتي اشتراها بماله من أحد جماعته، لهذا يخصُّها بالزراعة، والعناية دون غيرها، كما أنَّه يتعاهد أيضًا أراضي والده الموزَّعة هنا وهناك، الأرضُ في ذلك المكان ميثاقٌ عظيمٌ بالمكان، نوعٌ من التواصل الحياتي الفريد، حياةٌ تتجذَّر، ألوانٌ تنتشر، طيورٌ ودواب تقتات.

الجنوبيُّ يتعاملُ مع أرضه كإنسانٍ يعطيها اسمًا، يتعاهد "العُرق"، و"الخلج"، والطينة، وإذا آذاها السيلُ، يعتذر منها، ويعدها بالخير وقت الحصاد.

تقتربُ غالية، ومعها إبريق الشاي، وأشياء ملفوفة في قطعة قماش، يجلس معها على صخرة، ينظران في التربة الحمراء التي بدأت تتنفَّس.

غنَّام

كان منظرًا مرعبًا صباحَ ذلك اليوم الذي استيقظ فيه عطيَّـــة، وشاهدَ جميعَ أغنامه نافقةً داخل الحظيرة!

نادى جدَّتهُ لترى المنظر، تقدَّمت من باب "الزربة" حَوْقَلَـــتْ، وأمرته أن يتخلَّص منها قبل أن تتفسَّخ من شمس الظهيرة.

أخذَ يبحثُ بين الجثثِ الهامدةِ، عن سببٍ لهذا المـــوتِ، ربَّمـــا يكون ثعبانًا، أو دابَّةً سامَّةً، لكن لو كان هذا السبب لسمعت جلبة، لكنَّه لم يسمع شيئًا البتة!

ذهبَ إلى أسفل الوادي، وتحدَّث مع صاحب شـــيول ليحفـــرَ حفرةً لدفنِ القطيع.

ما يحزنُ عطيَّة هو ثغاءُ البهم، الذي يرغب في اللقاء بأمهاتـــه، والذهاب إلى الجبل، ستكون مهمَّة غالية صعبةً الأيام المقبلة، ســـتقوم بإرضاع كلِّ الصغار بعد هذا الفَقْد الذي كانت أماراتـــه واضـــحةً.

كان ينظر بحزنٍ عميقٍ إلى العمَّال الذين أخذوا يرمون بجثث الغـــنم داخل تلك الحفرة.

..

عندما ردم صاحب الشيول الحفرة، لم يعدْ عطيَّة يرغب في البحث عن أسباب نفوق غنمه بتلك الطريقة.

لكنَّه انتفض فجأة، كأنَّما سُكبَ على ظهره الماء البارد، لم يرَ "غنَّام"!

سأل "غالية" فأخبرته أنَّها لم تره!

أخذ بندقيَّته، وصعد الجبل.

من المحال أن يذهب "غنام" مع الكلاب الضَّالة، هو ليس من النوع الذي يترك صاحبه لنزوةٍ، هناك كلبة أسفل الوادي يقضي وطره منها أيَّام الخصوبة، ثم يعود سريعًا.

وقع الحجارة من تحت قدميه له صدى في الشعب، ينظر في المغارات والشقوق، عطية يحدث نفسه: ربَّما تردَّى، أو نهشه سبعٌ.

في إحدى السقائفِ في الجبل توقَّف، شرب بعض الماء، ارتاح قليلا.

عطيَّة يمسحُ المكان بالدربيل.

ثم رأى على إحدى الصخور التي تشرفُ على المرعى بياضًا، كان "غنَّام" نهض عطيَّة وناداه..

- غنَّام، غنَّام، غناوم، غناوووووم،..

لكنَّه لم يستجبْ للنداء، نظر عطيَّة إليه، ضبط عدسة الدربيل، غنَّام يبدو نائمًا، لكن تحت رأسه بدا وكأنَّ هناك شيئًا أسودَ متعرِّجًا، يبدو كثعبان، نزل عطيَّة مستغرِّبًا من هذه الحالة، أيكون لدغه ذلك الثعبان؟

تجلَّى كلُّ شيءٍ عندما اقترب عطيَّة من المكان، لقد كان الشيء المتعرِّج تحت رأس غنَّام دمًا قد سال ويبس! صعد إليه، كان ميتًا،

ووجد رصاصةً قد اخترقت رأسه، ولم يغيِّرْ وضعه، كـــان متوسِّـــدًا يديه، ينظر في مرعى الحلال..

تركه على حالته تلك؛ لينظر إلى المراعي، والسفوح.

عطيَّة يحبس ألمه حال النزول، لا أحدَ يسمع صرير أســـنانه إلاَّ هُو.

عندما دخل بيته، سألته غالية، فأخبرها أن غنَّام قتلته الكلاب!

..

في المساءِ الحزينِ، يذهبُ عطيَّة يغلقُ مولِّد الكهرباء العتيق، يعمُّ الهدوء المكان، تتصاعد موسيقى الحياة، حفيـــفُ الشـــجر، صـــريرُ الجنادب، تسرَّب إلى أذن عطيَّة ثغاءُ الصغار، التي فقـــدت أمّهاهـــا، يشعر بضغط في جوفه، يقترب من سدرة الدار، يضع رأســـه علـــى جذعها ويبكي، يفتل جسده، يتَّكئُ عليها بظهره، ينزلق نحو الأرض وينشج، ينحسر الإزار إلى أن يصل ركبته، يضرب الأرض بيده مثل طفل حرمه والده ما يحب.

غالية تسمعُ الصوتَ، تعرف أنَّ زوجها لا يحبُّ أن يطَّلعَ أحـــدٌ على حزنه، تتطلَّع إليه في الظلمة، تلفُّ أصابعها حول شبك الـــدار، ويلف حولها جديٌ صغيرٌ.

..

تجاوزَ صدماتِ الأيامِ الماضيَّة، لكنَّ رؤية أيّ ماشية ترعى أمامه في السفوح تذكِّره بالصور الأليمة، وهذه الصور قادرة على أن تستلَّ أحيانًا دمعةً ساخنةً من عينه.

مضى أكثر من أسبوع علـــى الحادثـــة، لم يـــذهب خلالهـــا للجبل..

لم ينسَ عطيَّة موقفَ غالية عندما عرضت عليه أن يأخذ ذهبها ويبيعه، ويشتري غنمًا آخرَ، كان قد مضى على الحادث قرابة الشهر، نظر إليها بودٍّ، جمع كفَّيها بين يديه، ورأى أنَّهما كانتا عاريتين من الحليّ، ورأى أنّهما بدتا أجمل، قبَّل كفَّيها، وضع ظاهر كفَّيها على عينيه، شعرت غالية بحرارة أنفاسه، وببعض دموع باشرت ظاهر كفّيها، نظر إليها بعينين ذابلتين وقال:

- أحس بحسرة يا غالية، لكن بعض الأمور ما يعوضها المال.
- طيب، نقعد من غير الغنم؟!
- كلُّ مفقودٍ يهون طالما أنتِ قريبة.
- ..
- بنشتري بعض الحلال، لكن الآن أبغى أنسى حلالي الأول.
- والله ما تنسى يكون بحلال ثاني يشغلك. وأنا ودّي أشترك معك، ويكون لي حلال بحُرِّ مالي.
- حلالي حلالك يا غالية.
- طيّب خذْ ذيه الذهب، وبعه مالي حاجة به.
- ..

نعم هو يشعرُ أنَّ الإنسانَ في دياره لا يعيش دون حلالٍ وماشيةٍ تملأ المكان حياةً وثغاءً، إنَّه يشعر بخصوبة الحياة عندما يسمع نبيب التيوس في الجبل والوادي، يشعر بالشبع عندما تشبع، والبهجة عندما تتكاثر، الحلالُ مصدرُ اعتزازٍ وكرمٍ، لا يتردَّد المرءُ من دعوة الغريب، وإكرام الضيوف، هو الغني عندما يحوزه، الفقير عندما يفقده.

..

بعد أن صلَّت الجدَّةُ وِتْرها قالت:

- يا جماعة شفتُ حلم البارحة.
- خير إن شاءِ اللهِ يا جدَّة.

فذكرت لهم أنَّها رأت في المنام فرسًا بيضاءَ حملتها إلى غيمة، ثم تركتها!

تكدَّر عطيَّة ممَّا رأت الجدَّةُ، تمتم لها بصوتٍ منخفضٍ:

- خير إن شاءِ الله..

النَّحل

يسمعُ عطيَّة -وهو في الجبل- طلقاتٍ متتاليةً، قريبــةً، ربّمــا تكون من منزله، الطلقاتُ المتتالية لا تكون إلاَّ لأمرٍ جلل، يفكِّر عطيَّة وهو ينحدر كصخرة.

قبل ذلك لم تعلمْ غالية أنَّ أمرًا صادمًا سوف يفاجئهم صــباح ذلك اليوم، فلم تتحمَّل العجوز رؤية الأرض وهي مغمورة بالديزل، فتهاوت، حملتها غالية إلى البيت، ثم أطلقت النار.

حمل عطيَّة جدَّتهُ وزوجتَهُ، وذهبوا إلى أقرب مركــز صــحيّ، وهناك تمَّ تحويلها إلى مستشفى المحافظة.

قرَّر الطبيبُ أن تمكث الجدَّةُ في المستشفى، عطيَّة عندما عــرف خبر الأرض، عرف أن غنمه قبل أسابيع نفق بفعل فاعل!

...

لم تتوقَّفْ مفاجآتُ ذلك اليوم، فعندما وصل عطيَّة إلى منزلــه عصرًا، وجد دخانًا يتصاعد من خليّ نحله التي تعلو منزله!

ذهب إلى حيث النَّحل، لقد حرقت كل خلايا النحل، ووجــد أنَّه "فَرَق" في شجرة مجاورة، فذهب سريعًا ليحضر خليَّةً من البيت.

من بين الأغصان كان يبحث عن الملِكة وهي تؤدِّي حركتـــها بعد دمار مملكتها، شعر عطيَّة بنوع من العزاء وهو يشـــاهد النَّحلـــة في ذلك الطقس، أخذها من بين النَّحل، ووضعها في الخوط، وضـــع معها بعض النَّحل، بعد أن غرس بداخلها قرصًا من الشمع، ثم أغلق الخليَّة.

الدخانُ ما زال في بقايا عيدان الخلايا، وكثيرٌ من النَّحل المحروق والمخنوق تحتها، كان المكان هادئًا وحزينًا، وكان يرى مـــن فـــوق أرضه ملوثة.

..

غنمه، أرضه، ونحله، وجدَّته الآن ترقد في المستشفى، ولا يدري ماذا سيحدث في الساعات المقبلة، هو لا يدري ربما يفقـــد غاليـــة أيضًا.

وحده في البيت، فقد كانت غالية برفقة جدَّته في المستشفى.

"ما حد كما حسين البس" يتذكَّر كلام جدَّته عـــن حســـين البس، لقد كانت تتحدَّث عنه كملاك، هو يقدِّر أســـاطير جدَّتـــه، ويصدِّقها، كان حسين يعمل تسعة أيام في أرضه، وفي اليوم العاشـــر يعمل مع الغير، ويعتبر ذلك زكاةَ بدنٍ!

عندما يأتي الجرادُ يأكل مزارع الخلق، ولا يأكل مزارع حسين!

ربّما ينسى الناس أشياء كثيرة تتعلَّق بحسين، لكنَّ القبيلة كلّهـــا لا تنسى المجاعة التي لحقت بالجميع، فترك النّاس الديار يبحثون عـــن العيش، إلاَّ حسين بقي في القرية ينتظر المطر، وبعد شهر نزل المطـــر، ذرأ حسين أرضه، ولكنَّه لم يجد حبوبًا يذرأ بها بلاده، وبلاد جماعته، فنام حسين مهمومًا، فرأى في المنام مقبرة يعرفها!

عندما أصبح، ذهب إلى المقبرة فوجد نملاً يحمل الحبَّ ويكنـــزه داخل أحد القبور، فتح القبر ووجد الحبَّ الكافي ليذرأ بلاد جماعته، ووعد النمل أنَّه سوف يردُّ الحَبَّ بعد الحصاد.

رجعت القبيلةُ بعد ذهابِ المخمصة، كانت الـــبلاد خضـــراء، كانت السنابل تتمايل، مع الهواء، كانت القبيلة، تمســـح دموعهـــا، وكان حسين يحصد السنابل ليردَّ الحبَّ للنمل!

حليبٌ مبهَّرٌ

خرجت الجدَّةُ بعد أسبوع من المشفى، كان عطيَّة حريصًا، أن يعود كلُّ شيءٍ إلى عهده، جرف الطينة الملوَّثة بـــ "البوب كـــات"، وجلب أخرى من وادي فاطمة، ووضع بعض خلايا النَّحل الجديدة، بجوار الخليَّة الوحيدة العامرة، كأنْ لمْ يحدثْ شيءٌ.

..

لم يعدْ يخرج بعيدًا عن حـــرم بيتـــه، يخشـــى علـــى الأرض، والدواب، وأصبح يخاف على جدَّته وزوجته من أن يحـــدث لهمـــا مكروهٌ في حال غيابه.

لكنّها كانت أيَّامًا هادئة تلك التي أعقبت خروج الجـــدَّة مـــن المستشفى، لم يشعر بشيء، إلاَّ أنَّه أصبح قريبًا من أرضه، ويصـــغي كثيرًا لجدَّته.

وغالية تمسحُ وجهَ الصبح، فيصير مبهجًا، رغم هموم الأمس التي زادت من اصفرار وجهها.

مجتمعون على "الفتة"، أقراص مهروسة مع الحليـــب الطـــازج، تطفو عليها بقعة ممتدّة من السمن البقريّ الـــذي أهدتـــه صـــالحة،

العسل وحده لم يكن حاضرًا.

"هدايا الله كثيرةٌ، ولكن أعظمها غالية"، هذا ما يردِّدُه عطيَّة في نفسه، يستميت ليلبـــي احتياجاها، وهي لا تطلب إلاَّ في النادر.

أضيقُ اللحظاتِ تكونُ؛ عندما تأتي من بيتِ أهلها كـــلّ نهايـــةِ أسبوع، فمنذُ رحيل والدها لا تأتي من عند أمّها إلى وهـــي متـــدثرة بكآبة لا يزول أثرها إلاَّ بعد ليالٍ، وهو يحاول قدر الإمكـــان أن لا يعكّرها بسؤال.

هو يعلم أنَّ هيَّاسًا وراء هذا الكدر، ويحاول عدم اللقـــاء بـــه، يختار أوقات غيابه ليسلّم على أم زوجته.

..

ذهبت الجدَّةُ إلى الظِّلِ، غالية تقطع تصوّرات عطيَّـــة بكـــوب حليب ساخن مبهّر بالزنجبيل، تسأله عن الجبل وانقطاعه.

- وش معك ما طلعت الجبل، لك فترة؟
- ماشي رغبة..
- تخاف أحد يعقبك على البلاد.
- الحافظ الله يا غالية، الوبارة غايبة، والمطر مـــا حـــط، والله يجيب خير.
- طلعت أمس وشفت الخلايا.
- لا تعلمي جدتيه.
- الله يجعلها في وجه من عبث بها، الله يحوث عليه..
- ....
- كنا نخافُ من الورقة، والنيص، وذحين بني آدم!
- ما أشره على المعجمات، تدور رزقها، لكن البشر فسدة.

رأت غالية أن عطيَّة لا يرغب في الاستغراق في هذا الحـــديث، صبَّت له فنجانًا آخرَ.

أحسَّت أنَّ هناك مخلوقًا يقضمُ ضفيرتها، التفتت ورأت جـــديًا يعبثُ بشعرها، ربَّما يريد الحليب.

تمتلئ عينا غالية دمعًا عندما ترى تقافز الصغار، تشعر بـــبعض الأمومة، هي ترغب في طفل، مرّ على زواجها قرابة السنة والنصف، و لم تظهر عليها بوادر الحمل.

..

الجدَّةُ في أقصى الدار، تغنّي ببعض القصائد، ترسل شطرًا لغالية:

"فطيمة ما تفرغ لحيّ من الناس

يا الله لها حوب أبوها.."

يبتسمُ عطيَّة، تقومُ غالية، متَّكئةً على ركبة زوجهـــا، بعـــد أن فهمت الرسالة الموجَّهة لتجلس مع العجوز.

شهبانٌ

صريرٌ بطيءٌ لمفاصل إحدى الأبواب أيقظه من النوم؛ أخذ يتفقَّد أبوابَ المنزل القليلة، ربما تُرك باب مفتوح يعبث به الهـــواء، حمـــل "مشعابه" وخرج من البيت إلى حوش الدار ليقصد مجلس الضـــيوف القصيّ، استتر بالظلمة، كان الباب مواربًا، وكان هناك ضوء يطيش في الظلمة، كان في الداخل مَن يعبث، اقترب بهدوءٍ من الباب، فضَّل أن يعطي ظهره لشطر الباب المغلق.

..

يشعرُ بوجيبِ قلبه، رغم علمه أن اللصَّ أكثر خوفًا وجُبنًا، نظر من تحت الباب، اطمأن أنَّه لوحده، رجع لوقفته المتحفِّزة للانقضاض.

يفكِّرُ ماذا سيصنع، كلُّ خوف عطيَّة أن يكون السارق مسلَّحًا، لكن ماذا يريد أن يسرق؟!

يسمعه يتقدَّم نحو الباب، يفتح الباب بهـــدوء، ذات الصـــرير البطيء، يخرج رأسه ليتأكَّد من خلو المكان، لكن مشعاب عطيَّـــة لا يهمله أن يلتفت، فسقط داخل المجلس، تتناثر الأشياء الـــتي حـــاول سرقتها.

ركلَ صدره، سحبَ الشماغَ عن وجهه، أخذَ يقاوم، يحاولُ أن يهرب، فسحبه عطيَّة، ضربه بالمشعاب، يتهاوى، يردِّد:

- دخيلك. أنا في وجه الله..

لم يسمعه عطيَّة، فقد أخرجَ جامَّ غضبه المحبوس كل الفترة الماضية، وسلَّط على الرجل سيلاً من الشتائم لم يكن من عادته أن يتلفَّظ بها.

- دخيلك.. دخيلك.

"دخيلك" لم تشفعْ له، إلاَّ حين أُجهد عطيَّة، كان الدم يسيل من جبهة اللِّص، فتح عطيَّة اللثام، لقد كان جمعان مرافق هيَّاس!

- أنت مَن صببتَ الديزل في الركيب، وحرقتَ الخليّ، وسمَّمت الحلال؟
- والله العظيم يا عطيَّة مهو بأنا!!
- هيَّاس أرسلك؟
- ...
- شوف وحياة ربيه ما أترك إلاَّ بفضيحة، واتّصل على القسم، ويكتبون فيك يا خسيس، ولا تنسَ أنت وشيخك محسوبين على الداخليَّة.
- أنا في وجه الله يا عطيَّة..
- لا تجيب سيرة الله على لسانك يا وسخ!
- شوف إذا ما تتكلّم أنت خسران يا جمعان..
- استر عليّه الله يستر عليك.
- أرسلك هيَّاس، تكلَّم يا خسيس..

-   يا أخي لو علمتك يلحقني أكثر ممَّا لحقني منك.

توقَّف كلٌّ شيءٍ، حتَّى الكلام، أصبح لا يسمع سوى الأنفاس المنهكة.

تعوَّذ عطيَّة من الشيطان الرجيم.

-   إذا أعطيتني الصدق، واللهِ ما يلحقك إلاَّ العافية، تروح من دون فضايح، ولا محاضر، ولا توقيف..

لم يكن أمام جمعان إلاَّ الاعتراف أنَّه كان مدفوعًا من قِبل هيَّاس، وأنَّ الرجل ناوي الشَّر، ولن يتركه إلاَّ بعد أن يطلِّق غالية.

ثم تركه عطيَّة يذهب، فقد ناله من الجزاء ما يكفي، وسمع منه ما أكَّد ظنونه.

جمع عطيَّة الأشياء التي كانت ستُسرق، بندقيَّة "مفتل" قديمة، وأخرى "محدش"، وسيف دمشقي، وجنبيَّة مالكيَّة، حملها معه داخل البيت.

في الصباح اكتشف عطيَّة أن جمعان قام بتمزيق "شهبان"!

..

كانت ترتشف قهوتها القشر بجوار الرحى القديمة.

علمت الجدَّةُ بما جرى لـ "شهبان"، شعرت بأنَّها هي من تلقَّى تلك الطعنات بدلاً عنه، تقترب منها غالية وهي تحمل بعض تمرات الصفري، تتعاهد غالية عمامتها الحمراء المطرَّزة أطرافها بفصوص الفضّة، تحاول جمع خصلات شعرها المتمرِّدة.

كانت العجوزُ قد انتهتْ من صلاتها، وتسبيحها، أصبحت تصدر "طقطقاتٍ" من حنكها تدلُّ على التحسّر.

ثمَّ أخبرت غالية بأيَّام شهبان الصعبة.

"المجاعة استمرَّت لأربع سنوات، طلب الشريفُ الزكاةَ، والقبيلة لم تجدْ ما تطعم به أطفالها، فأرسل جيشًا بقيادة "برقوش" لقتال المرتدّين، الذين هم نحن الجياع، فذهب جدّي خضران، وجدّي مشني إلى عند أحد أعيان القبيلة يطلبانه البصيرة، فقال: السيل ما يوقفه أحدٌ!

خرجا من عند الرجال، إذ هما بالجيش قد خرج عليهما من عند "الصخيرة"، كان الجيشُ على سبعة بيارق، فقام جَدِّي خضران، وجَدِّي مشني يوجِّهان البنادق لحاملي البيارق، قُتل جَدِّي مشني، وأُصيب جَدِّي خضران في ركبته، فزحف إلى "دبل المعمرة"، فنزل الجيش للوادي، وأخذوا يحرقون الحصون، فحرقوا حصن "المشكول"، وحصن "قريعة"، وكان "شهبان" داخل "المشكول" وقد أخذوه، فاعتزى جدّي عثمان بن موسى وقال: وش نبغي بأرواحنا بعد زيرنا "شهبان"، فرمى أحدهم ناقع الزير، فحمل أحدهم الزير فقتل، عندها شقّ أحد أفراد الجيش الزير "شهبان"!

هنا تتوقّف الجدَّةُ، وتذكَّر أنَّه حدث أمر صغير، "والصغائر قد تغيّر المصائر"!

انطلقت بقرةٌ لشريفة بنت عيسى وسط المعركة، فقام أحد القادة بضربها بالجنبيَّة، فأطلقت شريفة الغطاريف لطلب النصرة من أهل الشيمة، فاشتدَّ عزم القبيلة، وارتبك الجيش، فصاح أحمد السبروت: "الجبال.. الجبال"

فركبت القبيلةُ الجبالَ، وأخذتْ تطلقُ على جيش برقوش حتَّى تفرق"!

- ما شاء الله عليك يا جَدَّة، مَن علَّمك العلوم؟
- رواها لي سعيد المطشة، وطاهر بن عثمان.
- ما شفتِ عطيَّة اليوم؟
- راح الطائف يصلح "شهبان".

السيلُ

الصمتُ الليليُّ في القرية، يتزيَّن بصرير الجنادب، وزقاء البوم التي تذكر أنَّها لم تحظَ بفريسة منذ أيام.

عطيَّة مضطجعٌ على جنبه الأيمن، وغالية مسندةٌ ظهرها على جذعة، كهلال يؤوي نجمة، يداعبها، يمرّر أصابعه على رقبتها، تطلق ضحكةً صغيرةً، وتكشف عن فخذها لتريه أثر اللَّمس، غالية تعالجُ قطعةً من القماش ببعض الخرز الأحمر، يغرس أنفه في خاصرتها، تضربه بحنان، يخطُّ خطًّا بأصبعه على ظهرها نحو الأعلى، ثم ينحدرُ نحو صدرها، تنفرُ حلمةُ ثديها من خلفِ الثوبِ، تحذِّرهُ أن العجوزَ قد تظهرً في أيِّ لحظة.

الأجواءُ ساكنةٌ، لم تعدْ هناك نسماتٌ في عرصاتِ الليل، عندما طلب عطيَّة من غالية أن يرتقيا سطح الدار، لينعما ببعض الهواء، والصفاء، خاصَّةً بعد أن أغلقَ مولِّد الكهرباء الصغير.

يضعُ عطيَّة السلم على الجدار، يطلبُ من غالية أن ترقى أولاً، وبحركة خفيفة تصعد، يهزُّ السلم لتخويفها، تهدِّدُه بالنزول، يعدها ألاَّ يفعل.

يصعدُ من خلفها.

يُدْخِلُ رأسَهُ داخلَ ثوبها.

يشمُّ في طرفِ الثوبِ العطرَ.

والأرض.

والماشية.

تضحكُ غالية.

هناك معراجٌ بسبب دغدغة الداخل، يلعقُ ربلة الساق، يصعدُ بلسانه إلى فخذها، يضعُ خدَّه على مؤخّرتها، تصعد بخفة، ثم ترقى للسطح.

أرضُ السطحِ رُدمت بتربةٍ خشنةٍ، هناك بعضُ النباتات الصغيرة منتشرةٌ في المنتصف والأطراف.

نزع عطيَّة إزاره، ورماه بحركة بهلوانيَّة شبقة، كان منتصبًا؛ ممَّا جعلها تطلقُ ضحكةً مرتفعةً، جعلت العجوز في غرفتها تفتح إحدى عينيها، ثم ما لبثت إلاَّ أن أغلقتها.

تنزعُ غالية ثوبها الذي لم يكنْ تحته ما يحجبُ الجمالَ العميقَ، يمرُّ بأنفه على قسمات الجسد، يطاردُ رائحة الطبيعة، تحرقه أنفاس غالية المتَّقدة، يلعقُ جيدَها، يشمُّ حلمتي صدرها النافرتين.

قضيبُه المتوتِّرُ يبحثُ عن الدفءِ والأمان، يوهمها أنَّه ضلَّ الطريقَ، تمدُّ يدها لتهدّيه، ينفذها، تغمضُ عينيها..

يسكنُ كلُّ شيءٍ بعض لحظاتٍ، ينحدرُ العرق من بين أكتافه، تمرِّرُ يدها على ظهره، يلعقُ الجبينَ المتفصِّد..

استلقى بجوارها بعد أن سقَى ديارها.

يشعرُ بوخزاتٍ صغيرةٍ ولذيذةٍ في ظهره، جرَّاء مباشرته التراب.

ينظران في النجوم..

تتوسَّدُ غالية ذراعَهُ..

تغفُو..

يغفُو..

..

جذوعٌ جافةٌ تتقصَّفُ بشدَّةٍ، صخورٌ تتدحرج، هديرٌ يقترب، يفتحُ عطيَّة عينيه، يسحبُ يده برفق من تحتها، يجلسُ، تتساقطُ من ظهره بعضُ الحصواتِ الصغيرة، يعيرُ سمعه للصوت.

ينتفضُ من مكانه، يبحثُ عن إزاره، تستيقظُ غالية، تسأله، يسألها عن الإزار، يردِّدُ:

– السيل..

– أيّ سيل؟

– سيل منقول..

يقفزُ عطيَّة من فوق السطح إلى الأرض عاريًا، يكتفي بسترِ الليل، تصيحُ فيه غالية:

– تستَّر يا مخلوق!

يركضُ عطيَّة بكلِّ ما أوتي من قوّة، يقفزُ فوق الصخور، يتخطَّى السيل قبل أن يصعبَ عليه الوصول إلى الضفَّة الأخرى، كان عطيَّة ينتظرُ السيل، يريدُ أن يعرف جودة التربة المجلوبة من وادي فاطمة.

يجدُ ضفةً قريبةً، يقفزُ نحوها، ليتَّجه نحو أرضه، يشاهدُ الماء يتدفق نحو أرضه، حتَّى إذا امتلأت ذهب إلى الخليج كي يكسرَ عنها السيل؛ حتَّى لا تتضرر بتقطع العُرق، وتجرف الطينة.

عندما اطمأنَ عطيَّة من كسر الخليج، اتَّجه إلى بيته بعد أن طاله السيل، بلونه، وطينه وورقه، وناله بعض الخدوش.

كانت غالية بجوار السياج الذي يلفّ الدار، على عاتقهـــا إزار عطيَّة، وكانت بجوارها الجدَّةُ، عندما بدا، صرخت الجدَّةُ:

- تستَّر يا مخلوق، الله لا يفضحنا.

قفزت غالية عندما رأته، وناولته الإزار.

كان الثلاثةُ يشاهدون السيل، بعد ذلـــك انصـــرفت العجـــوزُ لصلاتها، وظلَّ عطيَّة ينتظر الصبح ليرى أثر الرحمة.

حنش

في المساءِ يسمعُ عطيَّة جلبةَ سيَّارة أمام البيت، عنـــدما خــــرج عرف السيَّارةَ.

ترجَّلَ حنش من سيَّارته ذات الدفع الرباعي، متوشِّحًا مسدسه، هو على الدوام يحمله في الإقامة، وفي السفر، لا تستطيع قوة في العالم أن تنزعَ منه سلاحه، رغم أن التصريح الذي يحمله تصريح حيـــازة، وليس حمل.

ضخمُ الجثةِ، داكنُ اللونِ، هيئته لا تتغيَّر، لا يلبسُ إلاَّ الـــداكن من الثياب، شماغُه شديدُ الاحمرارِ، يعتمـــر عقـــالاً تحتـــه نباتـــات عطريَّة، سيّدها الريحانُ، شاربُه الكثُّ شـــديدُ العنايـــة بـــه، أنـــفٌ ضخمٌ، وعينا صقرٍ تترصّدان الحركات الصـــغيرة، لكثـــرة ذهابـــه للقنص.

أقبل وهو يلوكُ غصنَ بشام غض.

حنش معروفٌ في مجالس القبائل، للصلحِ وأخذِ الحقـــوق، وفي مناسباتِ الأفراح، والعزاء، لا يتركُ مناسبةً لقبيلته وجماعته إلاَّ ويكونُ أوَّلَ الحاضرين.

في ساحاتِ العرضةِ يكونُ شامخًا، يعتمرُ عقالاً "مقصَّبًا"، وتحته نباتات الجبل، بثوبه "المفرج" الواسع، وبندقيّته الــ "قبسون" الطويلة، وجزمته التي يتعاهد طلاءها في كلِّ مناسبة، حنش في "العرضة" كأنَّه قدم منذ قرون، أصيلٌ في حركاته، وإيماءاته، يُغيِّب الذين يرقصــون العرضة في دخان بندقيته، ويرى الناظر من بعيد أن القوم يرقصــون لحظة فوق غيمة!

جمعَ بينهما حبُّ السلاحِ، وصيدُ الوبارة، والسباع.

ظنَّ عطيَّة أنَّ حنشًا لديه رغبة في الذهاب للجبــل، والمكــوث هناك لبضع ليالٍ، لملاحقة السباع، فهــو لم يعــدْ يقتنــع بالحجــل والوبارة، بل أصبح لا يرضى بغير الذئاب، والضباع، ربَّما يتنــازل فيأكل النيص، أمَّا غير ذلك من صغار الصيد فلا يلتفت له إطلاقًا.

دائمًا ما يردِّد عطيَّة لحنش –عندما يرى إلحاحه لصيد السباع– شطرًا من قصيدة "المقرى":

"قلت خلوكم معي في ذا الحوالي للحجل وأشكاله..

وسباع الخوف يكفينا ويكفيكم شرورها"..

فيردُّ عليه حنش بالشطر الآخر من القصيدة:

".. هذاعك هداك الله ما هي من صيودنا"!

صاح عطيَّة بالترحيب:

- حيَّاكم الله. الله يحيّيكم.
- الله يسلكم.
- مرحبًا ألوف، حيَّا الله أبو عناد.

تصافحا، وتبادلا التّحايا بالأنوف، وقبل أن ينفتل كأبجدية أولى لقدوم عزيزي، قبض حنش على ساعد عطيَّة، وأخــبره أنــه يريــد

السلام على العجوز، ثم هناك ما يريد أن يخبره إيَّاه بعد لقاء العجوز، و"طلّق" أنَّه لن يتناول عنده سوى فنجان قهوة، عطيَّة يخبره أنَّه كان ينوي اللَّحم للبيت قبل مجيئه، لكنَّ حنشًا أخبره بعجلته.

عطيَّة يرفعُ صوته بالترحيبِ ليتنبَّه أهلُ البيت، فتقوم غالية بما عليها أن تقوم، وتتقدَّم العجوزُ إلى المكان المخصص للزوَّار المقرَّبين.

"الفيوميَّةُ" ترحِّبُ بحنشٍ، يتقدَّم منها، ويقبِّل جبينها، يمازحها:

- كلُّ الناس تهرم إذا كبرت، إلاَّ أنتِ يا فيوميَّة، تعودينَ في الصغرى.
- والله ما أفلك لكم حتَّى أدفن آخركم.

يضحكُ حنش، يسأل عن الصحة، ثم يعاود المزاح:

- طيّب وإذا الله قدَّر وتموتين قبلنا؟
- إذا متُّ أدفنوني كما "رمادان"!
- الله أكبر، ندفنك واقفة؟
- إيوه..
- طيّب، وين تبغينا نلقي وجهك، تجاه القبلة، وإلاَّ كما الأوَّلين تجاه المشرق؟
- وجهي للوادي، أصبِّحكم وأمسِّيكم، يا قليلي الخاتمة.

يقهقهُ حنش لبراعة العجوزِ في الحديث، وحنش يعرف كيف ينال محبَّة الكبار، لهذا طلب منها أن تقصَّ عليهم قصة "رمادان" فذكرت أن "رمادان" ذهب إلى قبيلته بعد أن قتل تسعة وتسعين من القبيلة التي قتلت أخاه، وقال لهم إذا متُّ ادفنوني واقفًا؛ لأنّي أقسمتُ أن أقتل منهم مئة، وعندما مات دُفن جسده واقفًا، وبقي رأسه ظاهرًا فوق الأرض، بعد ذلك، مرَّ أحدُ رجال تلك القبيلة التي خسرت

تسعة وتسعين من رجالاتها على المكان، فقِيل له: هـــذا هـــو قـــبر "رمادان"، وتلك هي جمجمته، فاقتربَ منه ولعنه، ثم ركل جمجمتـــه فدخلت عظام الجمجمة في قدمه، ثم مات متأثرًا بذلك الجرح، فكان تمام المئة، وبعد زمن نُقل رفاته إلى قبر آخر، كان الرفاتُ بلا رأس.

ثم علَّق حنش: حتى بخروش دفن بلا رأس.

ردت العجوز: رأس بخروش لا يريد أن يشم ريح الخونة!

عندما انتهى حنش من شرب القهوة، والحديث عـــن الأرض، والزرع، والمطر، ودَّع العجوز، ثم صحبه عطيَّة إلى سيَّارته، وقبل أن يركبها قال لعطيَّة:

- الليلة الشهر كامل، وش رأيك نطلع السقايف؟
- قاله الله.
- نتقابل في سقيفة الرَّاعي بعد العشاء.
- بجيب معيه خبزة.
- أحسن، في أمان الله.

صعودُ الشحمِ

البدرُ مكتملٌ تمامًا، يكسو الجبال بلون مائل للزرقة، أصـــوات مخلوقات الليل تكسر حدّة الوحدة، والشعور بالرهبة، الأشـــجار في الجبال في الليلة القمراء تظهر كأشباح ترغب في الصعود.

أسند بندقيَّته على عتبة السقيفة، وأخذ يجمع الأغصان اليابسة، من أشجار متنوِّعة، كـــ "المض"، والسلم، السمر، وبقايـــا نباتـــات صغيرة، يجمعها بين الحطب، ويخرج ولاَّعته، ويشعل النار، ينظر إلى النار، ويحرِّضها:

"ذنب الذيب أطول من ذنبك

ذنب الذيب أطول من ذنبك

ذنب.."

يخرج عدَّة الشاي من السقيفة، يحملها إلى الغدير، في طريقـــه يصل الشجر والعشب إلى وسطه، يخرج سكينه يقطع بعض الأغصان التي تعيق طريقه، لا شيء يخشاه في ذلك الدغل سوى الثعابين، الـــتي قد تنهش دفاعًا عن نفسها.

يقتربُ من الغدير، يرفعُ إزاره الملوَّن، يغسلُ الإبريق النحاسي،

يزيلُ من قعره أثرَ الطين، يرفعه نحو القمر ليتأكّد من سلامته من الثقوب، يضعه فوق الصخر، ويبدأ في غسل الفناجين، بعد أن ينتهي يملأ الإبريق من ماء الغدير غير الصافي، تخرج الفقاقيع، يمتلئ الإبريق بالماء الذي فيه كدرةٌ بسبب الطحالب، وبراز الحيوانات، لكنّ النار ستقوم بمهمَّتها مع هذه الأشياء.

يقتربُ من شجرة "عدنة" قطع بسكينه غصنًا طريًّا، فسدّ به خرطوم الإبريق حتَّى لا يخرج منه الماء.

النارُ تصدرُ هسيسًا يضفي على مسرح الكون موسيقى بديعة، الصوت، واللون، والرائحة، والدفء، ثمَّ الطعم في الأكل، والشاي، النار أميرة الليل التي لا غنى عنها في الصحراءِ والجبل.

يجعلُ الإبريقَ على طرف النار، لتقوم بمهمّتها مع كائنات الداخل.

يقلِّبُ نظره في الجبال، والشِعب، لا صوت قريب ينبئ بقدوم حنش، يسمع صوت الماء الذي يباشر قعر الإبريق، يشبه الخرير، يكسر بعض الحطب، يجعله جانبًا لليل.

يتوسَّدُ صخرةً عن يمينه، السقيفةُ تطلُّ على الشِعب، والوادي، يرى أنوار القناديل البعيدة، يسمع أصوات بعض مولّدات الكهرباء الصغيرة.

فجأةً يلمحُ بريقًا في أسفل الشِعب، بريقٌ يتحرَّك بشكلٍ عشوائيٍّ، ثم يختفي!

يضعُ الإبريقَ على الجمر، يرفعُ الغطاء، فيرى البخار يتصاعد، يرى البريق مرَّة أخرى بشكل أشد، ذهب لشجرة بشام قريبة، أخذ الأغصان الطريَّة الصغيرة، ذات الأوراق اليانعة، قطف بعضها، ثمَّ عاد

وقد وجد الماء يغلي بشدَّة، وضع السكر في الإبريق فهدأ الغليان قليلاً.

لفت انتباهه البريق الغريب الذي في أسفل الشِعب، والذي بدا وكأنَّه يقترب منه!

جعل بندقيَّته بقربه، وأخذ يتسلَّى بإبريق الشاي، الذي أخذ يغلي مرَّة أخرى، فأضاف عليه أغصان البشام، والشاي الخشن، ثمَّ وضعه في طرف النار، كي يُطبخ بهدوء.

سحبَ عطيَّة "صلاة" صفيحةً صخريَّةً من الجبل، وبقطعة القماش الملفوفة على الخبزة السمراء، نفض الغبار من على الحجر، وضع الفناجين، وقام بقطع الخبزة بسكينه.

فارَ الشاي على النَّار، رفعه ثمَّ وضعه على "الصلاة"، وأدخل أحد الفناجين في خرطوم الإبريق كي يخدر فترة.

البريقُ أقبلَ واضحًا، فاضحًا للسرِّ، فقد كان مصدره شحم الذئب الملفوف على عقب بندقية حنش، والذي كان يعكس نور القمر.

- حيَّا الله أبو عناد، يا أخي الشحم ذيعك أشغلنيه، والله يا له بريق شفته، وأنت بعد في أسفل الشِعب.
- الله يسلّمك، أحسن ما في الذيب شحمه.
- هيَّا تعالَ، دوبه رشق الشاهي.
- بجيك لكن في ذميته أربع ركعات، بقبع بها ونشرب الشاهي، جبت خبزتك؟
- الله.. الله..

سكبَ عطيَّة الشاي، بينما حنش يصلّي.

يشعرُ بمتعة العيش في تلك اللحظة، وهو ينظرُ في المكان، يحدِّث نفسه أنَّه ضيَّع عمره في جدَّة، لم يعدْ ينقصه في ديرته سوى أن يشارك الطيور سماء الله.

أقبلَ حنش وهو يسأل:

- ها كيف الحال، طاب الحال؟
- الحمد لله في أفضل حال. كيف حالكم؟ كيف العيال؟
- الحمد لله رضا.

عطيَّة ينتظرُ أن يبدأ حنش في "عِلمه"، لكنْ حنش يتحدث عن أسعار الذخيرة، عن الصيد، وحكاية الذئب الذي قتله قبل أيام.

- من غير رصاص، وش نسوِّي يا عطيَّة نلمح في بعضنا بعض؟!
- نتركُ الرّماية، ونخلِّي الرصاص للقنص.
- هيّا ألمح نترك الرماية!
- ما ينخاف عليك يا بوعناد عندك الخير.
- الحمدُ لله، لكن أفكِّر في الناس المعسورين، حالتهم حالة الواحد يشتري الرصاص، وإلاَّ يشتري العيش؟
- العيش، المهم نبغي العلم؟
- العلم سلامتك، وصلني خبر، من ثقة، أن واحد من الجماعة بلَّغ الداخليَّة، وذكر أن بعض أفراد القبيلة، يتاجرون في السلاح، وأنَّ لهم علاقة بالإرهابيين؟
- وش ذيه العلم؟!
- اسمع الكلام، تعرف الأوضاع هذي الأيام، واحتمال الشكوى كيديَّة، المهم كلمتك عشان تحتاط، توقَّع أيَّ

شيءٍ وأنا رفيقك، ومن خاف سلم، وسلامتك.

- سلمت، طيّب عرفته ذيه الخسيس؟
- لو عرفته كان دقّيت خشمه.
- ذولا الناس شرٌّ، أعوذ بالله.
- المهم الحذر.. الحذر

أخذ الحديث مجرى آخرَ، عن الحكايات القديمة، عن الأساطير التي تتناقلها الشفاه، عن الجدة القديمة، وعن رأس بخروش الذي عبر البر والبحر حتى لا يشم روائح الخونة، عن الحكايات الصغيرة التي لم تلوثها الرغبات.

أصبح الصوت يذوب في الكون، الكائنات تنصت لهذا الحديث، الجبال تشرئب، الأشجار تتحرَّك أغصانها نحو الصوت.

السقيفةُ وطنٌ

عطيَّة يثق بحنش، فلديه من المعارف مَن يوصل له كلَّ صغيرة وكبيرة عن الديرة، أخذ بنصيحته، فهو ليس بحاجة لمشكلات مع الدولة، فهو مجرّد فلاح يجري في دمائه حبُّ المكان، يريد أن يعيش في وئام في شِعبه، بجوار غالية، ويمارس الرماية، والقنص، والزراعة..

..

في اليوم التالي بدأ يخرج سلاحه، وصناديق الذخائر، من الغرفة التي خُصِّصت لها كمخزن، أخذ يفكِّر أين سيذهب بها، من المستحيل، أن ينزل بكلِّ هذا السلاح لجدَّة، فهناك الأوضاع متأزِّمة، ونقاط التفتيش شديدة بعد مواجهات الإرهابيين، والحال في الوادي متأزِّم أيضًا بعد البلاغ، الذي تقدَّم به أحدُ خبثاءِ القبيلة.

أخرجَ جميعَ الأسلحةِ والذخائر من المخزن، لم يتبقَ من السلاح إلاَّ المرخَّص فقط، بندقيَّة "برنو" خفيفة، بندقيَّة "مازور"، بندقية "شوزن" من نوع "بيكال"، ومسدسه الربع الإيطالي من نوع بريتا، وبعض البنادق القديمة في مجلس الضيوف للزينة، واللبس أوقات الأفراح، محدش، ومفتل، وملحقاها، وهي ممَّا لا مساءلة فيه في الغالب.

قامَ بلفِّ البنادق في "خياش"، كلّ واحدةٍ على حدةٍ، حتَّى لا تتعرَّض للخدش، ثم لفَّها بالبلاستك حتَّى لا يصلها الماء.

هناك خيارٌ واحدٌ صعبٌ.

..

ذهبَ إلى "عليب"، فلا زالت هناك تجارةُ الحميرِ قائمة، رغم محدوديَّة الإقبال على شرائها في الوقت الحالي، فمَن يحضر السوق هم فئتان: عمَّال من شرق آسيا يبتاعونها من أجل أكلها، وبعض الفلاحين الذين لا زلوا يستعينون بهذا الحيوان النبيل في قضاء بعض حوائجهم، وخاصَّةً مَن يسكنون في مناطق وعرةٍ.

انتقى عطيَّة حمارًا أسودَ قويًّا، كبيرَ الظهرِ، قصيرَ القوائمِ، سأل البائع، هل له اسمٌ من قبل؟ فقال: سويد.

ردَّد عطيَّة:

- سويد.. سويد.. مشينا يا سويد.

..

بعد أيامٍ اختارَ عطيَّة إحدى السقائفِ القديمة التي هجرها الرعاةُ مكانًا للسلاح، سقيفة الرّاعي، هي الأفضل، هي محفورة في الجبل بعناية، وجدارها الوحيد الذي يقابل الكون لا زالت أحجاره متماسكة منذ قرون، السقفُ لا زال متماسكًا، يحفظ المكان من المطر، والغبار، وأذى الحيوانات.

الطلوعُ الأوَّل لسويد حمل فيه بعض أدوات البناء لتهيئة المكان، أخرج عطيَّة من السقيفة، شنطة "سحّارية" صدئة، فرشًا مهترئة قديمة، جوالين ماء لم يعدْ بها شيء سوى أثر الطحالب، بعض الفناجين المكسورة، قتل عقربًا، ثم أخذ المسحاة، وبدأ في الحفر، مَن

يراه من بعيد يظنُّ أن خلدًا عظيمًا يحفر بطن السقيفة، فلا يخرج منها سوى أكوامًا هائلة من التراب.

أخذ منه الحفر يومًا كاملاً.

ثمَّ نقل السلاح في يومين، وأخذت منه صناديق الذخيرة أربعة أيام، وقد أبلى سويد في تلك الأيام بلاءً حسنًا.

بعد الانتهاء من المهمَّة الصعبةِ في ذلك المكان، توَّج عطيَّة عمله العظيم ذاك بفرش أرض السقيفة بـ "زولية" وطنيَّة حمراء.

شعرَ عطيَّة بأنَّ المكانَ قريبٌ منه، فلا يمرُّ أكثر من يومين إلاَّ ويمكثُ فيه ساعاتٍ يشربُ الشاي، يتأمَّل الوادي بالدربيل، يشاهدُ البهم تطارد غالية فيضحك.

..

استغربت من إلحاح زوجها في الذهاب معه إلى الجبل؛ لمعرفة المفاجأة التي تنتظرها هناك، كانت تعتذر غالية بالجدَّةِ، وتلحُّ عليها الجدَّةُ بخوض تجربة تشابه حياة الأسلاف، عندما كانوا يهجرون بطن الوادي والسفوح، ويعتصمون بالجبل.

عندما وافقت غالية على الصعود، قام عطيَّة بذبح تيس صغير، سلخه في لحظاتٍ، ثم أعطى الربع منه للجدَّةِ، فقد أخبرها أنَّهما قد لا يعودان إلاَّ في اليوم التالي.

وضع عطيَّة اللَّحمَ في "المذرا" المصنوعِ من الطفي على ظهر سويد، وطلب من غالية أن تركبَ إن أرادت، لكنَّها ذكرت أنَّها ستركب حال التعب، ذكَّرت عطيَّة بحمل بعض الماء، لكنَّه أخبرها أنَّ كلَّ شيءٍ جاهزٌ، وأنَّهما بحاجة للمرخ فقط.

فأخبرته أنَّ "حنشًا" مرَّ قبل أيام، ووضع لهما بعض المرخ، بعد أن مرَّ يسلِّم على العجوز.

- لا ديرة دون حنش.

حملَ عطيَّة أغصانَ المرخ، ثم كان الصعود، خفافًا خفافًا، استمرَّ الصعودُ قرابة الساعتين، كانت غالية قد ركبت سويد.

كان يقطفُ البشام، يعطي زوجته، تلوك الأغصان، كانت تفكِّر في العجوز، فلأوَّل مرَّة بعد زواجها من عطيَّة تتركها لوحدها، إلاَّ لزيارة أهلها، كانت العجوز أنيسة لها، إنَّها كتابٌ مفتوحٌ، تسرد عليها القصص والحكايات، تتحدَّث شعرًا أحيانًا، تلمح بألغاز، تقف معها إذا حدث خلاف مع عطيَّة، إنَّها ركنها الشديد.

تنظرُ غالية -وهي على ظهر الحمار حال صعوده- إلى ظهرِ عطيَّة، تتمنَّى أن يحملها، تريدُ أن تضع ذقنها الدقيق على رأسه، تريد أن تشعر بأنَّها محلِّقة كحمامة.

- عطيَّة.
- لبّيكِ.
- تشتالنيه؟

التفت إليها بتعجُّب:

- أتعبكِ ركوب الحمار؟
- لا.. كذيه بس.

اقترب عطيَّة من الحمار، حملها على ظهره.

كان عطيَّة وغالية قد تركا "سويد" خلفهما، فهو يعرفُ الطريق جيِّدًا، بعد أيام مضاها في الصعود.

النسرُ المحلِّقُ يرصدُ المشهد في الشِعب الكبير، وبين الشجر يشاهدُ رجلاً يحمل أنثى، يقفزُ على الصخور بخفّة دونَ أن تتزحزحَ من فوقه، يراقبُ النسرُ منديلها الأحمر وهو ينحسرُ عن شعرها.

حرَّرت شعرها للنسيم، تحرَّك يديها كأنَّها ترغبُ في الطيران، يقرِّرُ النسرُ أن يتركَ المشهد العابث، يحرف جناحه نحو الجبال.

اندهشت غالية من المكانِ المهيَّأ للحياة، السقيفةُ مفروشةٌ، هناك وسائد، وبطانيَّة لشخصين، وفانوس صغير، وفي الخارج مكان للجلوس، موقد، وحفرة للحنيذ.

..

رمى عطيَّة حطبًا في الحفرة، وأشعلَ النار، كانت غالية تفصل الذبيحة بسكين "خوجة"، وبعد أن انتهت أخذت تعجن.

بعد راحة قصيرة، أخذ عطيَّة بندقيَّته، وترك زوجته تحضِّر الغداء.

بعد أن أصبحَ الحطبُ جمرًا دونَ لهب، رمت غالية أغصانَ المرخ فوق الجمر، ثمَّ رمت بعض اللَّحم عليه، ثمَّ غطَّته بطبقة أخرى من المرخ، ورمت دفعة أخرى من اللَّحم، ثمَّ غطَّت الحفرة بما تبقَّى من المرخ، ثم أغلقت الحفرة بصلاة رقيقة نزعتها من بين الصخور، ثم أخذت قطعة من القماش، وغطَّت الصحائف الصخيرة، ثمَّ ردمتها بالتراب، وبعد ذلك قامت برشِّ التراب بالماء.

بعد ساعةٍ فردت العجينةَ على صخرةٍ، ثمَّ ردمتها بالجمر.

غالية تنظرُ إلى الوادي، واضعةً يديها على خصرها، تنظرُ إلى بعض الماشية من بعيد، تتذكَّرُ غنَّامًا.

بجوارها نبتت "مسيك"، وضعتْ بعض فروعها الصغيرة تحت منديلها الأحمر؛ فزهورُ الجبالِ ضئيلةٌ، لكنَّها عبقةٌ، تبقى رائحتها شهورًا، تضعها النساء في الوسائد، وأماكن الراحة، حتَّى عند الخلاص تبقى على وفائها.

يعودُ عطيَّة دونَ غنائم، تسأله ساخرةً:

- وين الذيب؟
- ذيبي يظهر في الليل.

يسألُ عن الغداء، تنظرُ غالية في ساعتها الذهبيَّة الصغيرة، فتطلبُ منه أن يصبرَ قليلاً.

..

غالية لا تكفُّ عن الحركة، تستحدثُ العملَ، والحركة.

- اجلسي يا مرة، خلِّينا نسولف شويَّة؟!
- ملحوق على سواليفك، وبعدين علومك حوب الجبل، والصيد، والسلاح، والوبارة، أعرف -والله- من صاحبة السواليف.

تقومُ بإخراج خبزة الحنطة من تحت الجمر، تقلبها على وجهها، تمسكها بحركة خفيفة، وتقذفها ساخنة على عطيَّة، يضعها على الفراش، يُخْرِج سكينه الصغيرة المطويَّة، يفردها، ويقطعها على شكل مثلثات.

- الله على الشاهي ذلحين!
- خلِّ الشاهي قوم شوف اللَّحم.
- ذئبي يحبُّ اللَّحم!

يزيحُ الترابَ، يطوي القماشَ بحذرٍ؛ حتَّى لا يسقط شيءٌ من التراب من بين الشقوق، يتصعَّد البخارٌ الزكيّ، أزال المرخَ الذي تغيَّر

لونه بفعل الحرارة، وبدأ في إخراج اللَّحم، ووضعه في الصحن، ثمَّ صبَّ عليه عسلَ سدرة عصره حديثًا.

ينهشُ اللَّحم بطريقة بدائيَّة، يتمدَّد الدهن على وجهه كلَّما التهم مزيدًا من اللَّحم، تضحك من هذا الشره، يأخذ قطعةً من لحم الكتف ويطعمها.

بعد الغداء يذهبان للسقيفة، يضطجعان، يضع رجله فوق خاصرتها، يشمُّ شعرها الذي تفوحُ منه رائحة "المسيك"، ما يريده من الحياة أن تدومَ اللحظة بكامل تفاصيلها.

يناما ن.

في المساء يستيقظان، يصلِّيان العصر فوق السقيفة، تحضِّر القهوة، والشاي، يثرثران إلى أن تغيبَ الشمسُ.

..

في الليل، تبدأ حياةُ الجبل الأخرى، تشعرُ بنوع من الخوف، فلمْ تنمْ في الجبل في حياتها، هي تسمعُ جَدَّاتها عندما يحكينَ عن حياتهنَّ في الماضي.

النجومُ كالنمشِ في خدِّ الليلِ، أصوات الهوام، الجنادب، نقيق الضفادع، حسيس النار، ينظران في السماء، هناك وميض يشقُّ السماء، هو يقولُ: إنَّه نجمٌ سيَّارٌ، وهي تقولُ: هو مجرَّد قمر صناعيّ، يسأل بنوع من السذاجة:

- تتوقَّعين يصوِّرنا؟
- يصوِّر كلَّ شيءٍ: الجبال، والأودية، والحيوانات.
- حتَّى الذيب؟
- حتَّى الذيب.

- لكنْ أتحدَّاهم يصوِّرون ذيبـــي.
- ترى أزعجتنا بذيبكَ هذَا إللي ما حدْ قد شافه.
- تبغين تشوفينه.

نظرتْ له بريبةٍ، وخوفٍ!

فمدَّ يده تجاهَ قضيبه!

أطلقت ضحكةً عاليةً، ضربت ظاهر كفَّه، بدأ هـــو يقتـــربُ، ضمَّها بقوة، يوهمها بنهشِ رقبتها، كانت تحذِّره من الأقمـــارِ الـــتي تمسح الكون، لكن الذئب استيقظ، خرج من مكانه المعهود، تمـــدَّد، رفع رأسه للسماء، لم يكن يأبه للنجوم السيَّارة، ولا الأقمـــار الـــتي تصوِّره في تلك اللحظةِ، يرفع رأسه، يعوي بشدَّة، يشدّ ظهرَه في كلِّ مرة يعوي فيها، ويمعنُ في العواء، يمعنُ في العواء، حتَّـــى إذا أزبـــد، ارتخى..

يغفُو الذئبُ، تغفُو الذئبةُ.

..

استيقظا بعد ساعات، فنومُ الجبلِ عميقٌ وقصيرٌ، ثم طلبَ منـــها أن هناك تسليةً أخرى تنتظرهما في الأسفل، ظنَّت أنَّه يريدُ أن ينـــزلا إلى البيت، لكنَّه أخبرها أنَّهما لن ينزلا إلاَّ الصبح، طلـــبَ منـــها أن تنزل معه دون أسئلة.

وبدآ في النزولِ لأقرب شعيب منهما، وعنـــد الغـــدير نـــزعَ ملابسه، وملابسها، ونزلا الماءَ، تشعرُ ببرودة الماء تقرصها، يداعبـــها في الماء، وهي تحاولُ إغراقه، تصعدُ الضحكاتُ بين الشِعاب، تؤثِـــث الليل بالبهجة، تطلبُ منه أن يقفَ، لتصعد على عاتقه لتقفز في الماء، استمرَّ العبثُ حتَّى بدأ الليلُ يمتصُّ الدفءَ.

بعد ذلك خرجا من الماء، وجلسا في طرف الغدير، أخذ يجفِّفُ شعرَ زوجته ببعض ملابسه، غالية ترتجفُ، يغطيها بكل ملابسه.

يصعدان نحو السقيفة، تضعُ غالية ما تبقى من الحطب للدفء، يسحبُ عطيَّة الزولية داخل السقيفة، يشعلُ الفانوسَ، يهيئُ المكانَ للنومِ.

بعد الجفاف والشعور بالدفء، يغلقُ السقيفة بصفيحة من الحجر؛ لمنعِ الدواب والحيوانات من الدخول.

يأكلان ما تبقَّى من الخبزةِ.

نامَا بعد أن تغطَّيا ببطانيَّةٍ ثقيلةٍ.

عيدٌ وسعيدٌ

الرمادةُ التي في الموقد باردةٌ، رموشُ الشمسِ الذهبيَّة تكنسُ بقايا النوم من الموجودات.

تستيقظُ قبله، حركاتها في المكان توقظه، تأمره بالنهوض ليعودا للبيت، فقد تأخَّرا على العجوز، يخبرها أنَّ الساعات الأولى من الصباح غالية، ولن ينزلا إلاَّ بعد الإفطار.

- أخبز؟
- الله يسعدك.

بمجرد أن بدأت تجهِّز الإفطار، غسل وجهه، أخذ بندقيَّته وأخبرها أنْ سوف يأخذ جولةً قصيرةً، ثمَّ يعود للإفطار.

..

بينما أخذت الخبزة في الاستواء، سمعت صوتَ طلقة، يبدو أنَّه وجدَ صيدًا، ما إن انتهت من تجهيز الإفطار، حتَّى عاد يحملُ صيدًا.

اقترب مرتبكًا، ليس كعادته!

استغربت.

لم يأتِ ليفطر، انشغل بسلخ الوبر، نادته أن يتركــه ويــأتي، أخبرها أنَّها أنثى.

- العادة لا تصيد الإناث؟
- كانت بعيدة.

سلخها، ثم علّقها في شجرة مجاورة، تربَّــع مقابلــها، وبــدأ يفطر.

سمعت غالية صوتًا، ثمَّ تجاهلته.

- عطيَّة!
- تسمع؟
- لا..

بدأت الأصواتُ تعود!

- عطيَّة بالله ما تسمع، زي صوت البساس!
- ....
- شوف لا تمزح معيه.
- يا بنت الحلال، ما أسمع شِي.

تكرَّر الصوتُ، وكان قريبًا!

- عطيَّة!

أدخلَ يده في ثوبه، فخرجت بوبرين حديثي الولادة!

- ما تخاف الله.
- يا بنت الحلال، ما عرفت إلاَّ بعد ما رميتها.
- طيِّب.
- لقيتُ بطنها يتحرَّك، فتحتُ بطنها وخرّجتهم.
- إن لله.

أخذت غالية الصغيرين، وضعتهما في صدرها، ثم قامت، و لم تدفعْ لقمةً في فمها. ثم بدأت في حمل الأغراضِ للنزول.

...

كان النزولُ مريحًا، على الجميع، سويد لم يكن عليه حملٌ كبيرٌ، عطيَّة يدفعه حزنه بسبب قنصه، وغالية تتعاهدُ الكائنين الصغيرين اللذين وضعتهما في صدرها، تضحك بعد كل حين لأنَّهما يدغدغانها.

تخبرُ زوجها أنَّها تشعرُ بالأمومة.

يطلبُ منها أن تختارَ لهما اسمين.

كان كلَّما توصَّلت إلى اسم تستشيرُ عطيَّة، كانت جادَّة في اختياراتها.

ثم توصَّلت إلى اسمين قريبين "عيد، وسعيد".

وحْشة..

الفرسُ تطيرُ

أخذوا غالية!

كان ذلك على مرأى من عطيَّة، الذي لم يستطع أن يعمل شيئًا أمام هذه القوى التي تكالبت عليه من كل الجهات، لقد تواطأوا عليه دون رحمة.

فقبل ثلاثة أشهر فسخَ القاضي عقدهما؛ بسببِ عدم التكافؤ، هذا ما كانت تطالبُ به الصحيفةُ التي قدَّمها "هيَّاس" بعد وفاة والده، حيث بيَّن أنَّه "صانع"، وهي بنت "شيوخ"، وأن نسبه دخيل!

كان عطيَّة قد حضر أولى الجلسات، وأخبره القاضي أنَّ التكافؤ شرطٌ، إلاَّ في حالة رضا أقارب المرأة.

حاول أن يبيّن للقاضي أن عائلته متحدِّرة من أصول رفيعة، ويشهد بذلك أعيان القبيلة، وأنَّ ما يقوم به من أعمال في ديرته دفعته له الضرورة، فمن غير المعقول أن يذهب للمدينة لإصلاح حوائجه، وشؤون بيته، كلحام الحديد، والنجارة لصنع خلايا النَّحل، و"خشايب" للبنادق، وأخبر القاضي أنَّ عمله الأساس هو بيع الغنم، والعسل، ويخدم قومه فيما يجيده دون مقابل أحيانًا.

حثَّه القاضي أن يتصالحَ مع صهره، ليكفَّ عن دعواه.

تدخَّل حنش في الأمر، لكنَّه لم يجد تجاوبًا من طرف "هيَّـــاس"، وفضَّل عطيَّة أن يتجاهلَ مذكرات المحكمة التي تلزمه بالحضور، لعـــلَّ هيَّاسًا يتراجع، أو يجد مَن يثنيه عن دعواه.

..

فسخَ القاضي عقدَ زواجهما، في ظلِّ غيابِ عطيَّة المستمر.

بعد أيام حضرتْ لجنةٌ، ومعها بعضُ الجنود، طلبوا من عطيَّة أن يركب سيَّارة الشرطة.

عندما ركبَ السيَّارة، دخل البيت "هيَّاس"!

اعترضَ عطيَّة أن يدخلَ دونَ استئذانٍ، بعد لحظات خرج ومعه غالية يسحبها بالقوَّة، ويحاولُ أن يدخلها سيَّارته.

- يا جماعة هذا الرجل يعتدي على زوجتي.

ردَّ عليه مندوبُ المحكمةِ ببرودٍ:

- لم تعدْ زوجتكَ.
- وش تقصد؟
- يا عطيَّة لم تستجبْ لجلسات القاضي الشهور الماضية، لهذا القاضي فسخَ عقدَ الزواجِ.
- ..

لاحظَ عطيَّة أن جدَّته تحاولُ أن تمنع "هيَّاسًا" من أخذ غاليـــة، فما كان منه إلاَّ أن دفعَ العجوزَ، فوقعتْ على الأرض.

نفضت العجوزُ الترابَ الذي علق بثيابها، وأخذت تلعنه.

عطيَّة يصرخُ من خلف زجاج السيَّارة، عنـــدما رأى هيَّاسًـــا يعتدي على العجوز، لكنَّ صوته ذهب سدى..

في القسم أخذوا تعهدًا عليه ألاَّ يتعرَّضَ للشيخِ، وألاَّ يقتربَ من بيته، وأنَّه سوف يتعرَّض للعقوبةِ في حال الإخلال بذلك، وذكَّــره الضابطُ في القسم أنَّ شيوخَ القبائل هم من منسوبـــي رجال الدولة، وأيّ اعتداءِ عليهم هو اعتداءٌ على الدولة، وإذا أراد أن يتظلَّمَ فهناك جهاتٌ يتقدَّم لها.

خرجَ من القسم، كان حنش ينتظره في الخارج، عطيَّة صـــامتٌ مذهولٌ، فغالية لم تعدْ في حياته تلك اللحظة.

تعبةٌ فوقَ تعبةٍ

لم يعدْ يرغبُ في مقابلة أحدٍ، حتَّى جدَّتهُ أصبح كلامها مدورًا مملولاً، لسانُها أصبح سوطًا ينكأ جرحًا اسمه غالية.

بعد رحيلها أتته رغبةٌ ملحَّةٌ في التخفّف من الأشياء، باع حلاله الذي اشتراه مؤخَّرًا، وأبقى حلالَ العجوز، كسرَ خلج الأرض حتَّى لا يزرعها، لم يعدْ يصنع بعضَ الأشياء للجماعة، خاصَّةً وأنَّ الصناعة كانت مأخذًا عليه في قضية التكافؤ التي رفعها عليه هيَّاس، لم يترك ذلك للعيب، وإنَّما لأنَّ هؤلاء الذين يخدمهم في مثل هذه الأشياء الصغيرة لا يستحقّون.

المكوثُ في الجبلِ برفقة "عيد وسعيد"، هو أعظمُ ما يفعله في وقته ذاك، السقيفةُ التي تكنزُ السلاح هي مكانه الذي يجدُ فيه الراحة والسلوى، يتسلَّى في النهار بقنص الحجل، والصفرد، لم يعدْ يصيد الوبارة حتَّى لا يؤذي رفيقيه.

يمكثُ الليالي ذوات العدد، لا يربطه شيءٌ بالبشرِ، إلاَّ صوت الأذان الذي يصل إليه في ذلك المكان.

عطيَّة أهملَ نفسه؛ شعرُه أشعثُ دومًا، شاربُه أخفى شفته العُليا،

لحيتُه أصبحت معقَّدةً، لم يعدْ يستحم إلاَّ عند الاحتلام، حتَّى جدَّتــهُ أصبحت تناديه "يابو حقّين" لأثر العرق الذي يظهر على رقبته!

..

عندما يجلسُ للفطور مع جدَّتهِ يأتياه "عيد وسعيد"، يــدخلان تحت إزاره، وما بين قميصه المتَّسخ، أصبحا سمينين جدًّا، أحــدهما لا يستقرُّ إلاَّ على رأسه بعد أن يقبِّله، أصبحت هذه الكائنات تلفــت أنظار الناس.

..

بعثَ عطيَّة أغراضَ "غالية"، وبعث لها "عيدًا وسعيدًا"، لكــنَّ "عيدًا" عاد بعد أيام وحيدًا خائفًا!

ثم علم عطيَّة أنَّه أتى هاربًا بعد أن جــرَّب "هيَّاسًــا" بندقيَّــة عُرضت عليه في "سعيد"!

الخسيسُ لم يجدْ إلاَّ ذلكَ الحيوان المستأنس في بيته؛ ليجرِّبَ فيه بندقيَّته.

عرفَ عطيَّة أنَّ "سعيدًا" لحقه مكروهٌ عندما رأى آثــار نضــحِ الدم على وجه "عيد".

ردَّد عطيَّة:

- ما شي إلاَّ تعْبة فوقَ تعبْة.

البلاد

بعد أيام رأى بعضَ الرجالِ قربَ أرضه، ذهبَ ليعرفَ سببَ تجمّعهم هناك!

عندما اقتربَ، رحَّبَ به القومُ، سمعَ أحد الجماعة يقول:

- هذا صاحبُ الأرضِ.

شعرَ بتوجّسٍ، تعوَّذَ باللّه من شرِّ ذلك اليوم، وشرِّ ما بعده، اقتربَ منه أحدهم، وكان بكامل أناقته، قبل أن يصافحَ عطيَّة، تأكَّد من استقرار عقاله، كان بيده بعضُ الأوراق، صافحه وأخبره أنَّه مراقبُ البلدية أتى ليرى على الطبيعة المكان، لأنَّ بعض أفراد القبيلة يطالبون بطريقٍ آخرَ لهم، لأنَّ الطريق الوحيد المغذِّي للقرية يقطعه السيل، وأن الطريقَ المقترحَ يمرُّ ببعض الأراضي، ومنها أرضه.

أخبرَ عطيَّة المندوبَ أنَّ من حقِّ الناس أن تطالبَ بطريق آخرَ، لكن دونَ إضرارٍ بأحد، وقال له:

- السيلُ يقطعُ الطرقَ السريعةَ، فما بالك بطريق في قرية منسيَّة، ولا يستغرق فيه تسوية الطريق إلاَّ دقائق، وتمرُّ سنوات أحيانًا دون أن يأتي السيل.

ردَّ أحدهم:

- لكنَّ المصلحةَ العامَّةَ يا عطيَّة.
- يا أخي عندك طريقٌ رئيسٌ.
- ما يكفي.
- يعني ما يقنعكم إلاَّ التعدِّي على أراضي الخلق؟!

ردَّ العريفة:

- هذه الأرضُ ملكٌ للحكومة!
- لا تستقوي علينا بالحكومةِ يا عريفتنا، نحنُ نعـــرفُ أنَّهـــا للحكومة، حتَّى بلادك وبيتك.
- أنا عندي صكٌّ على بلادي.
- أغلبُ القبيلةِ ما تملكُ إلاَّ وثائقَ وحجج قديمةً، وهذي لهـــا اعتبارها.

طلب عطيَّة من المندوب أن يرى المعروضَ المقدَّم من الجماعـــة، نظرَ في المطالبين، وبالفعل كانوا يتقاطعون جميعًا في أمر واحـــد، أن الطريق المقترحة لا تمرُّ على بلادهم.

أخبرَ عطيَّة مندوبَ البلديـــة بـــذلك، وســـجَّلَ اعتراضـــه في المحضر.

..

في المساءِ ذهبَ إلى حنش لزيارته، بعدما أُصيب بعارضٍ صحيٍّ جعله طريحَ الفراش، كان حنش هزيلاً، عيناه صفراوان جدًّا، الصفارُ طفحَ على جسده أيضًا!

فُجِعَ عندما رآه على تلك الحال، كان مستلقيًا علـــى ســـريرٍ حديديٍّ، ووجدَ عنده بعض الزوَّار من بني هلال.

سبق أن عرف حنش موضوع الطريق الذي طالب به البعضُ، والذي سيمرُّ على أرض عطيَّة، فشدَّد حنش عليه بضرورة الصمود أمام حقِّه، ولا يرضخ مهما كانت الوعود، فعدمُ وجود الأرض بمثابة إلغاءِ لوجوده في المكان، اقتربَ منه هامسًا:

- خَذُوا المرة لا يخذُونَ الركيبَ!

أقسم عطيَّة بحياةِ ربِّه أنَّ ذلكَ لنْ يحدثَ طالما رأسُهُ يشمُّ الهواءَ.

ابتسمَ حنش، ثم توحَّد الحديثُ عن الرماية، والقنص، وأسعار الذخيرة الذي بدا في ارتفاع بعد توتر الأحداث في اليمن.

فجأةً طلبَ حنش من ابنه أن يجلبَ بندقيَّته المازور الطويلة، وطلبَ من عطيَّة والزوَّار أنْ يجلسوه على السرير، ويضعوا الوسائدَ من خلفه، حتَّى إذا استوى في جلسته، حدَّد الهدفَ الذي سوف يرمونه، أحدهم يحلف أنَّه لا يراه إلاَّ بالمنظار، البقيةُ كانوا يرونه لكن بصعوبة.

طلب منهم كونهم الضيوف أن يبدأوا بالرِّماية، رموا كل واحد بثلاث طلقات، كانوا متفاوتين في رميهم.

عطية دفعَ بالطلقاتِ الثلاث في صدرِ الجبل فلم يجدوا لها وقعًا، ثمَّ جاء دورُ حنش، فتنكَّب البندقيَّة، كان ينظرُ عبر النيشان إلى رأس الإبرة، إلى الهدفِ الصغير، الذي يذهب ويغيب، وبعين حادَّة، ثاقبة همزَ الزنادَ، فدوَّت البندقيَّةُ، فأصبحَ الهدفُ طحينًا، يتتبَّعه الزوَّارُ بمناظيرهم، ابتسمَ حنش، شعرَ أنَّه بخير، لم يعدْ يفكِّر في تلك اللحظة بأيِّ رعب قد يجتاحه، فقد آن له أن يموت قبل أن يخونه البصرُ والرصاصُ.

بعد شهر من هذه الزيارة ماتَ حنش، و لم يتخلَّص بعضُ أفراد الديرة، من الدَّين الذي حمَّله في رقاب بنادقهم.

عطيَّة بكى حنشًا، فبموته لم يعدْ له متَّكأً في القرية، لقد فُقــد وتدٌ من أوتادِ القرية، لن تنساه الأودية والجبال، والشِعاب، كان حادًّا في الحقِّ، مبهجًا في الفرح، "أمحقَ" في الرّماية، كان حــنش أيقونــةَ الوقتِ.

ركوبُ الجبالِ

تردِّدُ الجدَّةُ: الولدُ "ركب الجبال"!

عبارة تُقال لِمَن نفر بجلده من مصيبة أو طارئ، مَن مسّه جنون، أو حلَّت به هزيمة، هكذا أصبح بعد غالية، لا يمارس من مناشط الحياة سوى ركوب الجبال.

..

يذهب للجبل ولا يعود إلاَّ مع غروب الشمس، يجد العشاء أمامه، يأكل ثمَّ ينام، وإذا أصبح "ركب الجبال".

في الجبلِ يأنسُ بمخلوقاته، خنافس صغيرة على الأشجار، اليعاسيب تضرب صفحة الغدران بذيولها، الحجل ينادي على جماعاته، العقاب يترصَّد طويلاً يبحث عن فريسة، السكون الذي يجمده بفعل انفعالاته الداخليَّة يجعل الوبارة تظهر رغم حذرها الشديد، تعلَّم من كائنات الجبل ما لم يتعلَّمه من البشر، حتَّى الدبابير تعلَّم منها عدم التعدِّي على الآخرين إلاَّ في حالة الاعتداء.

"الصليقُ" طائر أبو معول أصبح يلتقيه كثيرًا في أيَّامه تلك، منقاره الحزين جدًّا لا يملُّ من رفعه للسماء ليبحث عن قطرة فرح،

منذ أن التصق جدَّه الأوّل بالأرض، حرَّم النزول إليهـــا، وحـــرَّم ألاّ يشرب إلاَّ من ماءِ السماء، ماذا يريد "الصليق" من هذا القرب غـــير التضامن مع حزنه، ذلك الطائر جعل عطيَّة يفكّـــر بالمـــاء، فقـــام بتمديدات من الغدير الذي في الشِعب إلى السقيفة، وقام "المـــاطور" الصغير الذي كان يعمل قبل أن تأتي شبكة الماء إلى القريـــة، بعملـــه كما ينبغي.

قام بتمديد الماء لنفسه في ذلك المكان، وأصبح العيش يســـيرًا، ذكرى غالية تحضر وهو أمر ليس في يده، تمنَّى أن تكون غالية بقربة لتشهد عمله العظيم الذي قام به، لكنَّها الآن في مكان آخـــر، ولـــن ييأس من رفع أمره عند ولاة الأمر حتَّى ينصفوه من "هيَّاس"، ومـــن القاضي الذي حرمه زوجته.

لا يملُّ التأمل في الليل، يؤلمه فقط عندما يرى كوكبًـــا ســـيَّارًا فيتذكَّر، في سقيفته يأتي زوَّار بين حين وآخر، قنفذ يبحـــث عـــن جحر، "نيص" يبحث عن ما يسد به جوعه، وبعض الضباع أيضًا.

ماذا يريد من العالم المؤذي، ليس له علاقة الآن بأحـــد ســـوى جدَّته، وعيد.

ليس هناك ما يفعله إلاَّ البقاء معتزلاً، الاتِّكاء في ضلوع الجبال، الاضطجاع في الشِعاب، احتضان الأصادير، وتقبيل الجباه الشاهقة، التوسّد ببندقيَّة بلجيك تحت ظل شجرة.

لكنَّ البشرَ لا يُؤمن شرّهم، حتي في عزلتك لا يدعونك بخير.

عيدٌ مذبوحٌ!

عندما عادَ عطيَّة من الجبل اشتكت جدَّتهُ من فقـــدانها لـــبعض البهم، فهي لأربعِ ليالٍ على التوالي تفقدُ فيها أربعًا من البهم، رغـــمَ أنَّها متأكِّدةٌ أنَّ الغنمَ يعودُ كاملاً من الجبل!

ذهبَ إلى الزربة، كان يفحصُ المكانَ، فلم يجدْ أثرًا لحيوانٍ مفترسٍ، لا ذئبَ ولا ضبعَ، ولا وشقَ، كلّ هذه الحيوانات يعرف آثارها.

في المساء سحبَ سريرًا حديديًّا من منتصفِ الدار، وجعلَه يطلُّ على حظيرةِ الغنم، وكانت تنام بجواره بندقيَّة "شوزن" مـــن نـــوع "بيكال"، كان قد وضع في جوفها خمسَ طلقاتٍ مـــن "المتوســـع" المخصَّص لهذه الحيوانات الخطيرة.

لم ينمْ تلكَ الليلة، كان يرقبُ الغنمَ، يتساءل، لكنَّه لا يريـــد أن يضايقَ جدَّتهُ، لماذا لا تكتفي ببقرتها طالما أنَّها لا تسطيعُ رعاية الغنم، لو كان يريد رعاية الغنم لأبقى حلاله.

..

ينامُ مبكِّرًا، وبجواره بندقيَّته السوداء، متلحِّفًا بطانيَّـــةً ثقيلـــةً، فالذئب يعرف السلاح أيضًا.

النوم المبكِّر يجعله يستيقظ بعد منتصف الليل.

مرَّت أكثرُ من ليلة يترقَّب.

استيقظَ ذات ليلة بعد منتصفِ الليلِ، رفعَ البطانيَّةَ عن وجهه، نظرَ في النجوم، يشاهدُ في طرف الدار سيقانَ الذرة البيضاء، وهي تتمايلُ بفعل النسيم، ينقلبُ على جنبه فتطعنه الذكرى بمجرَّد الصحو.

انقلبَ على بطنه، ينظرُ في الزربة، كان فوقَ السور الأسمنتيّ – الذي يصلُ آخره إلى أصل الجبل- شيءٌ أشهب، لم يكنْ متأكِّدًا حتَّى هبَّ الهواءُ، وتحرَّك بعضُ الفراءِ الخفيف.

كانت البندقيَّةُ معمَّرةً، وفي بيت النار طلقة "ريو" شفَّافة.

همزَ مسمارَ الأمانِ الذي خلف الزناد بهدوء، الذئبُ يتحرَّك بهدوءٍ على الجدار، يقصدُ المكانَ الذي خُصِّص للبهم.

من تحتِ البطانيَّة تسلَّلت البندقيَّةُ، ثم أخرجتْ رأسها من بين قضبانِ السريرِ كثعبانٍ يجيدُ الترصّد، كانت الحبَّة المعدنيَّة في مقدِّمة سبطانة البندقيَّة تلمعُ، فغيَّبها في الفراء، كان عطيَّة يشعرُ بوجيب قلبه تحت الغطاء، سحبَ الزنادَ، فثارت البندقيَّةُ مطلقةً صوتًا هائلاً في المكان، قفزَ على إثرها الحيوان.

جفلَ الغنمُ، رمى الغطاءَ الذي كان فوقه، وقفزَ للحظيرة، قصدَ البابَ، نظر، فلم يجدْ له أثرًا.

خرجت جدَّتهُ تردِّدُ:

– يا شفاعة الله.. وش معك؟

– الذيبُ يا جدَّةُ.

– ذبحته!

– أظن أنَّي كونته.

..

عندما أسفرَ، ذهبَ عطيَّة يجوسُ في المكان، كان ذلك الـــذئبُ ذكيًّا؛ لدرجة أن عطيَّة خشي عليه أن يكون أصابه؛ فقد كان يســـيرُ فوق صخور الجبل حتَّى يصل إلى جدار الحظيرة، فيأخذ فريسته دون أن يترك أثرًا.

ذهبَ عطيَّة يتقدّمه "عيد".

أثناءَ الصعودِ رأى دمًا على أغصانِ الشجر، وعلى الأوراق!

عندما وصلَ أحدَ السدودِ الصغيرة في الشِعب رأى دمًا غزيـــرًا، وأثرَ زحفٍ!

جهَّز بندقيَّته، همزَ الشوكةَ المعدنيَّة فأدخلَ طلقةً في بيت النـــار، كان يتتبَّع الدم في الشِعب، بعضُ الدم كثيرٌ؛ لدرجة أنَّه لم "يتكبَّـــد" بعد، وهذا دليل أنَّه حديث المرور على ذلك المكان.

ثم فَقَدَ أثر الدم عندما وصل السدّ الأكبر!

جلسَ يمسحُ المكانَ بحثًا عنه.

الذئبُ قريبٌ، وربَّما ماتَ أيضًا.

فجأةً سمع صوتَ صياحٍ حادٍّ، كان صوت عيد، أخـــذ يقفـــزُ منحدرًا نحو الصوت، وتحت إحدى الأشجار المائلة تجاه الأرض بفعل السيل، شاهدَ الذئب، وكان رأس "عيد" –الذي لا يعرف السباع– محشورًا بين أنيابه، يريد أن يطلقَ عليه النار، لكنَّه يخشى أن يصـــيبَ عيدًا، اقترب منه، وقبل أن يضربه بأخمص البندقيَّةِ، فلت الذئبُ رأسَ "عيد"، فأفرغ بقية الطلقاتِ الأربع في جسده.

كان الدخانُ يصعدُ من جنب البندقيَّة.

أخرج عطيَّة "عيدًا" من بين الصخور، حملَه من رجليه، كان لا زال به حياةٌ، والدمُ يقطرُ من أنفه، نظر إليه بحزن، فَرَدَّ سـكينه، ثم ذبحهُ فوقَ صخرةٍ باردةٍ.

حكمُ البنادقِ

بمنظاره يرى ذات اللَّجنة التي ظهرتْ قبل أسابيع، كان "هيَّاس" واقفًا معهم هذه المرَّة، يقفُ حاملاً "بشته" الأسود فوق ساعده، يشير نحو أرض عطيَّة، أن الطريقَ سيكون من وسطها.

..

هي تعرف متى تمتد، الشهيقُ والزفيرُ يتجاذبان قبل كتمان القرار، العينُ اليُسرى تسدلُ الجفنَ لترتاح، اكتفت بالضوء في مسرح المشَاهد المؤذية، وبقية اليُمنى حادّة تجاه البياض الكاذب، نقطة فوق العباءة السوداء المطرَّزة بالذهب، عباءة الاستجداء، وطلب العطايا، والوجوه المنهوشة بعد غياب العفّة.

الحبَّةُ في رأسِ الصاحبةِ تكادُ تغيبُ في اللؤم، ابتسامةٌ منافقةٌ تظهر، خدٌّ لامعٌ بفعل شفرة الصباح، جبينٌ متغطرسٌ..

شهيقٌ..

زفيرٌ..

أنفاسٌ مكتومةٌ..

وجيبٌ متصاعدٌ.

أعضاءُ اللجنة يتشاورون مع الشيخِ بخصوص المعارضين، إلاَّ أنَّه يؤكِّد أنَّ أغلبَ مَن في الديرة يسعى لهذا الطريق؛ لأنَّ فيه مصلحةً عامَّةً، وأنَّ المعارضَ شخصٌ واحدٌ، وهذا لن يؤثِّر في الأمر طالما أنَّ الرجل ليس لديه صكٌّ شرعيٌّ، فهي أرضُ الدولة.

أعيانُ القبيلةِ يوافقون هيَّاسًا في رأيه، يكتبُ أحدُ أعضاءِ اللجنةِ التقريرَ، يوقِّعون عليه.

"هيَّاس" يشهر ابتسامةً ماكرةً، يقرِّب إليه التقرير ليوقّعه، وقبل أن يضعَ سنَّ القلم، كان الدويُّ هو الفصل، طار شماغُ الشيخ، وعقالُه، نضخَ الدمُ على أعضاءِ اللجنة!

أمضى عطيَّة توقيعَهُ الأحمرَ بطريقتِهِ، تفرَّق أعضاءُ اللجنة، كلٌّ يبحثُ عن مكان يحميه، لكنَّ الرصاصةَ كانت وحيدةً، ومصيريَّةً.

"هيَّاس" همد؛ لم تصدرْ منه حركة، كان الدمُ قد غطَّى وجهه، وملابسه، وسال متعرِّجًا كثعبانٍ خرج من جحره خائفًا.

..

عطيَّة انعطفَ في جلسته، جعلَ المشهدَ خلف ظهره، وضع بندقيَّته هي الأخرى متَّكئة على صخرة، بعد أن قامت بمهمَّتها كما ينبغي، شعر عطيَّة براحةٍ وسعادةٍ، يردِّدُ في نفسه: "لماذا لمْ أفعل هذا من قبل"؟

الآن يريد أن يعيشَ في الجبل، أن يموتَ فيه، فبعد تلك الرمية التي خرجت من القلب شعر بالحياة تعود، ومن تلك اللحظة أصبح من كائنات الجبل، لم يعدْ له أيُّ صلةٍ بمن هُم في الأسفل، أصبح يرمّمُ السقائفَ التي في الجبل، يعبِّد طرقَ الرعاةِ القديمة، يتعاهدُ وينظِّفُ خلايا النَّحل المغروسةِ بين الصدوع، وفوق جذوع الشجر.

نزْف

معداتٍ ثقيلةً تحاول تمهيد مكان أسفل الجبل/جبله العظيم، كان مع المعدات سيَّارات أمن، وعددٍ من فرق الطوارئ لمواجهة الإرهابيّ المعتصم بالجبل!

ذهبَ إلى السقيفة التي دفن فيها السلاح، أخرج رشَّاشي كلاشنكوف، ثم قطع الشِعب، وأخذ يقصد القمَّة.

كان القومُ مكشوفين مثل النمل.

أخذ عطيَّة يملأ المخازنَ بالرصاصِ ذي الرؤوس المعلَّمة باللون الأحمر، ومن فوق الصخور، انهمر الرصاص على عتاد القوم، وعلى سيَّاراتهم التي اتَّخذوها متاريسَ.

الرشاشان يتبادلان الأدوار، كلَّما التهب أحدهما، أتى دور الآخر، خرق الرصاص سيَّارتهم، وهشَّم زجاجها، واشتعلت النيرانُ في بعضها، الجنودُ أخذوا يطلقون النارَ على عطيَّة الذي لم يصله شيءٍ، سوى رصاصة ضربت في الصخر فارتدت في رأسه، وأخذت شيئًا من أذنه، كان بعض فتات الصخور على شعره، وثوبه بسبب الرصاص المتنكِّب.

توقَّف الرصاصُ فجأةً، فتراجعَ العسكرُ، وبقيت المعدَّاتُ الثقيلةُ، والسيارات المحترقةُ.

قطع جزءًا من إزاره، وربط رأسه النازف، كان يشعرُ بصداعٍ فظيعٍ.

لنْ يسمحَ لأحدٍ بالاقترابِ من جبله أبدًا.

أُغمي عليه.

..

أيقظه صوتُ "شهبان" ليلاً!

يقومُ مفزوعًا من مكانه.

لنْ يأخذوا "شهبان"

ماذا سيفعل بحياته بعد أن يأخذوا الزير؟!

يرى أنوارَ العدو، لم يتصوَّر يومًا أنَّ العدوَّ سوف يتسلَّل إلى ديرته!

نادى رفاقه ليشاهدوا أنوارَ العدوِّ!

طنينٌ حادٌّ هذا ما يشعرُ به، طنينٌ قويٌّ يسكنُ قليلاً، ثم يقرع رأسه بقوةٍ فظيعةٍ.

يكلِّم الصخرة التي أمامه (لن نسمح لهم بقتل رفاقنا)!

يتسلَّلُ إلى السقيفة، يأخذُ "الشاخوفا"، ينظر في الطحين، والماء، وآثار غالية.

أين غالية؟ ولماذَا هي قريبة من الحدود؟!

أخذ "الشاخوفا"، وتوجَّه لمكانه لينسف العدو، سيقتلهم، واحدًا تلو آخر.

لا زال يسمع أحدهم يقرع "شهبان".

يسمعُ "غطرفة" غالية تناديه لينقــذَ "شـــهبان" مـــن أيـــدي الأعداء!

البندقيَّةُ الطويلةُ استيقظت في المتراس، الرصاصُ الأحمر أصـــبح يشقُّ الظلام، من أعلى الجبل صوب فوانيس الوادي.

تسقطُ الفوانيسُ المعلَّقة منذ عقودٍ، فوانيسُ القريةِ التي تحيي الليل دونَ خوفٍ من غزو التيار.

دويّ، دويّ، دويّ..

احمرارٌ يشقُّ الظلامَ، تسقطُ الفوانيسُ مـــن بيـــوت حتَّـــى إذا أظلمت القريةُ، ولم يسمعْ إلاَّ جلبة أهلها، صرخ بصوتٍ عالٍ نشوةً بالانتصار الموهوم.

طلب من زملائه أن يدخِّنوا بأمان!

يطلقُ النارَ جذلاً، يزادان الليلُ الحالك بالمشاعل الحمراء، يذهب للسقيفة كي يبشِّر غالية بأنَّه هزم الأعداء، أخذ يسير في الظلمـــة إلى سقيفته، حيث الوحشة، وبقايا السلاح، وهناك سقط من الإعيـــاء، والنزيف.

..

يصحو "بخروش" صباحًا في قلعته على صوت "شهبان"، وبيده بندقيَّتهُ الـــ "عصمّلي"، قلعته صامدة رغم مدافع الباشا.

يشاهد قومه ملثَّمين، يسعدُ بانضمام قبيلته لقلعتـــه العتيـــدة، يقتربون منه، فيأمرهم بالانتشار في أنحاء القلعة، لكنْ هاله أنّ قومـــه يسدِّدون تجاهه البنادق، ويرفعون الجنابي في وجهه!

دفعوه خارج القلعة، سلَّموه للباشا مقابل السلّم والأرض!

..

كان يحيط به عددٌ من الجنود عندما أفاق.

أخذ يوصي قبيلته أن يدفنوه واقفًا، أن يجعلوا رأسه مشرئبًا للأعداء، أن يجعلوا سيفه مغروسًا بجواره، حتَّى لا يقترب منه الذباب!

غيابٌ

يشعر كأنَّ القبرَ قد ضاقَ عليه، يحاول أن يحرّك يديه، وقدميه، كان القبرُ لا يسمح له بأيِّ حركةٍ كان يضغط عليه بشـــدّة، حتَّـــى رقبته لم يستطع أن يحركها!

موثّـــــقٌ بـــــالأغلالِ البرَّاقـــــةِ، يشـــــعرُ بثقـــــل القيـــــد وبرودته.

بجواره عسكرٌ، وأطباء.

يهمّهمُ ببعض الكلمات، فيدنو منه أحدُ الجنود، يسأله الجنديُّ عن احتياجه.

كان عطيَّة يسأل عن رأسه!

فجأةً انتفضَ فوقَ السريرِ، وأخذَ يصـــرخُ بصـــوتٍ مـــذعورٍ، يسألهم أن يعيدوا له رأسه!

نادى أحدُ الأطباء ممرّضةً آسيويَّةً لكفِّ المريض عن التشـــنُّج، والحركة.

كان يصرخُ ويتوعّدُ الجميع بأنَّ اللعنةَ ستحلُّ عليهم إذا لم يعيدوا رأسه.

المرضةُ تمدُّ يدها لأقرب درج من السرير، ثم تحقنــه بواســطةِ أنبوب قد غُرس في ظهر كفه.

تقفُ، تشهدُ الغياب.

تهدأ حركته، تخفُّ وطأةُ القيد، ينخفضُ صوته تدريجيًّا.

أخذ رجالُ الأمنِ الذين كــانوا يرغبــون في التحقيــق معــه بالانسحاب من الغرفة.

بقي جنديٌّ للحراسة.

..

الغرفةُ مغلقةٌ باردةٌ، روائح المعقِّمات تملأ المكان، الهواء المحبوس لم يكن هواء الله الذي يعرفه، أصوات الأجهزة توهن أعصابه، يتفصّد جبينه عرقًا..

المرضةُ، تقومُ بضبط المغذّية، تتساقطُ القطراتُ منحــدرةً إلى عروقه..

قطرةً..

قطرةً..

أمسكت ذراعَه المتدلّية، وضعتها على السرير، ثم غطَّته بالبياضِ، بعد أن قامَ المخدّرُ بالجريان في جسده حتَّى يخففَ من وهم الــرأس المفقود.

..

الجنديُّ الــذي يحرســه، يضــعُ يديــه في جيــوب بنطالــه "الخاكي"، يقتربُ من الأجهــزة، ينظــرُ في القطــرات المغذّيــة، في رأس عطيَّة الملفوف بــ "الشــاش" في الرقبــة المثبَّتــة بأســياخ معدنيَّة.

يسمعه يُصدِر صوتًا منخفضًا، يخرج بعض الكلمات، الـــتي لم يستطعْ المخدّر أن يصل إلى منابعها داخل الجمجمة المثقوبة.

كان الجنديُّ يسمعه بوضوحٍ وهو يردِّدُ:

الجبال..

الجبال..

تمَّت

جدَّة

9 مارس 2016م

المراجع

كتب:

- رحلة في بلاد العرب، موريس تاميزيه، ترجمة: محمد آل زلفة، 1993م
- غامد وزهران، السكان والمكان، علي بن صالح السلوك، 2002م.

كتب مخطوطة:

- رجال من زهران، أحمد محمد الزهراني -الوالد رحمه الله- مخطوط.
- صدى الأصادير، بين الحقيقة والأساطير، أحمد محمد الزهراني - الوالد رحمه الله- مخطوط.

مجلات:

- "الرئاسة في قبيلة زهران منذ القرن الثالث عشر، إبراهيم محمد الزيد، مجلة "عالم الكتب، العدد 58- أغسطس 1993م.

شكر وتقدير

أشكر جميع الأصدقاءِ الذين اهتموا بهذا العمل قبل نشره؛

عبدالرحمن الشهري، على قراءة المسوّدة الأولى.

مقبول العلوي؛ على ملاحظاته القيّمة.

شهلا العجيلي؛ على مراجعتها النهائية، وتواصلها مع الناشر.

ممتنٌّ لكم..

صدر للكاتب

- **جانجي** "رواية"، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت 2007م.
- **أطفال السبيل** "رواية"، رياض الريس للكتب والنشر، بـــيروت 2013م.
- **الميكانيكي** "رواية"، الدار العربية للعلـــوم ناشـــرون، بـــيروت 2014م.
- **فقْد** "مجموعة قصصية"، مؤسسة الانتشار العربـــــي، بـــيروت 2015م.

الفَيومِي

طاهر الزهراني

- قاص وروائي سعودي.

@6aher_alzahrani

لا حيـاةَ فـي الجبالِ بعد رحيلـه، المطرُ لم يـأتِ منذ فترة طويلة، غبشٌ في الصـور بسـبب الغبار العالق الذي لا يريد النزول ولا الصعود، متشبِّثٌ بالتضاريس والهواء.

لا تكاد ترى حياة هناك، لا طيورَ جارحة، لا رفرفةَ حجل، ولا صوتَ لأبي معول، لا ضحكاتِ وبارة تتردَّدُ في صدور الجبال، ولا نقيقَ للضفادع في غدران الشِعاب.

السقيفةُ مبقورةٌ، باردةٌ بلا دفء، المكانُ يشتاق لمداعبات الأحبَّـة فـي لحظات الصفـاء، الموقدُ يفتقدُ حـرارة الجمر، ورائحـة الخبز، الوحشـةُ هي الساكنُ هنـاك، الساكن الذي يبغض الحياة.

«الصِفـر» هـو ما تبقّـى من المواجهـة بين فـردٍ ضعيف، وقوةٍ موجَّهة لا تشعر، «الصِفر» المبثوث القادم من نحـاسِ الأرضِ يرغـب فـي العودة إلـى قلـوب الصخور بـدلاً من رؤوس النـاس، وقلوبهم.

«الصِفـر» بعـد أن تخلَّص من رؤوسه عبـر حلوق البنـادق، بقـيَ جثاثًا صفراءَ، لا حياةَ لهـا سوى البريق الذي يحدثه النجـمُ الكبيرُ، البريق في الصدوع، والجباه، على الصخور، وأسفل جذوع الشجر.

«الصِفـر» جثثٌ أخرى فـي المعارك، فـراغٌ مرعبٌ محروقٌ داخلـه، بعـد أن كان يحبس الـدويّ والاشتعـال، والموت. الموتُ فـي الطرف المقابل، مـوتُ البشر، أو مـوتُ المعابر سحلاً فوق الصخور، أو بردًا في سماء الله.

منشوراتضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com







جميـع كتبنـا متوفـرة في موقـع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com